روايات رومانسية عالمية

عبير

مارغريت واي

صرخة البراري

مكتبة زهران

روايات رومانسية عالمية

عبير

صرخة البراري

بعد
اغتراب طويل عن نفسها
وعن ارض طفولتها واحلامها، عادت
كولبى اخيرا الى جذورها الى ارض كنجارا التى
تحتضن فى ترابها كل عظمه واساطير القارة
الاسترالية ، والى ابن عمها دارتلاند كينغ الذى يضاهى
ارضه صلابه وقوة وعنفوانا. كان جزء منها ومن احلامها .
المثال الذى كانت دائما تتطلع اليه وهى طفله لكنها لم تعد
طفله الان! ولم تعد كذلك الفتاة الوحيدة فى حياته .
فهل تصمد برائتها امام اغراء وجاذبية منافستها
روشيل تينانت؟ ام تعود كولبى الى الاغتراب عن
نفسها عندما تصطدم احلام طفولتها
بحقيقة كونها لم تعد طفلة؟

مكتبة زهران

جمهورية مصر العربية القاهرة
١٥ شارع الشيخ محمد عبده خلف الجامع الأزهر
ت ٥١٤٢٩٥٥ - موبايل ٠١٢٢٧٨٦٤٧٨

العنوان الأصلي لهذه الرواية بالانكليزية

KING COUNTRY

١ ـ حوار مع الأرض

الطائرة تحلق بهم الآن فوق بلاد كينغ على بعد ثلاثة آلاف ميل الى الجنوب الغربي من مقاطعة كوينزلاند. الارض الممتدة تحتهم تحتضن في ترابها كل امجاد وعظمة القارة الاسترالية. بلاد قديمة شهد تاريخها العريق مغيب ملايين الشموس قبل أن يطأها الانسان.

وتصارعت خفقات قلب كولبي. فالطبيعة حولها كانت تحمل معنى خاصاً يتجاوز الجمال الظاهري. للارض الحمراء المتمردة، الغارقة منذ الابد في نار الشمس، تأثير بالغ عليها يشعرها بالدماء تضج في عروقها، والحياة تسري في اعماقها. هذا عدا ذاك الاحساس العميق بالانصهار في روعة الطبيعة التي تجمع بين القساوة والحيوية. ظلال الالوان المتباوجة بين الاصفر والبرتقالي الاحمر تجتمع كلها في شعلة نارية تتراقص بجنون فوق المساحات الشاسعة. انها منطقة غامضة وجذابة وغنية بأساطيرها الحالمة التي تحميها الصخور الملتهبة، والسهول الفضية، ورمال الصحارى التي لا نهاية لها.

الشمس تتصدر السماء الزرقاء الصافية، لترسل اشعتها بدون تردد، فتتوج الارض بهالة من الجلال والعظمة.

انها ارض قاسية ترقص فيها الحيوانات قرب الواحات. وتزهو البيغاوات بألوانها المرحة التي تزيدها الشمس روعة وفرحا. فتتمايل زهوا الى جانب الطيور الاخرى التي تغني بسعادة قرب النهر الصغير، حيث تلهو بجعة غافلة بنفسها عن صقر منتصب على تلة قريبة مترصداً فريسته.

وبلاد القناة او شانيل كانتري ما اقساها في وقت الجفاف، وما اروعها بعد هطول الامطار، عندما تصبح متوحشة الجمال، وكأنها بعض من الجنة الموعودة. عالم خيالي الالوان، تطرزه الزهور ميلا بعد ميل في لوحة تتألق بألف لون ولون.

حتى الصحراء تحيا حين تحولها الامطار الى مساحات تزينها زهور الاقاصيا. صحراء ولكنها ليست بصحراء. فهي تحتاج للماء فقط رمز الحياة، لتولد الحياة. والجو بخلوه من الغبار صفاؤه يخدع النظر، ويلهو بزرع السراب هنا وهناك ساخراً بالانسان وبعيونه المتعبة. ويركض الهواء مكتوياً بنار الشمس، فيقفز كالشعلة ذات البريق الحاد فوق تلال الرمل، وبين السهول، ليكبر الحلم، وتتردد انعكاساته في المساحات الفضية التي اكسبتها الشمس بريق المرايا.

انها ارض السراب، حيث تظهر الاشباح فجأة، فيطال رأسها السحب، وترتجف الشجيرات الصغيرة تحت اقدامها. ويخرج العمالقة من السهول المرتعشة، فتتباعد واحات المياه السحرية عندما يحاول احد الاقتراب منها. انها ارض يحولها الضوء الى وهم.

«يا حبي. يا بلادي» غنّت كولبي. واحتوتها سعادة عارمة احسّت بها تصل الى حافة الألم. فتحتها تمتد اسطورة من البطولة والحرية نسجت خيوطها صورة ناثانيل كينغ، الشاب البريطاني المغامر الذي شق طريقه الى استراليا من الارجنتين، وباتاغونيا، والى حقول الذهب في بالارات، وبنديغو يشده السحر الخفي النابع من أول معدن ثمين يعرفه الانسان.

ناثانيل كينغ... كينغ الاسطورة. مامن امة اخرى كانت تستطيع ان تصهر مثل هذا الرجل. ولد في جو مفعم بالحب والامان والاستقرار، لكن روحه المغامرة التي ترفض القيود والحدود، لم يكن يرضيها ويشدها الا التحدّي الموجود في عالم جديد لم يروضه الانسان. ودفعه حسن طالعه الى ارض كوينزلاند في اواخر العام ١٨٨٠. ارض ابدية الغموض والخصب، وبلاد غنية بالخيول والمواشي.

هنا استقر مسلحاً بيديه اللتين ارهقها التعب، وبقبضة من حجارة الذهب، وبزوجة تضاهيه صلابة، وباصرار على قبول التحدي، ليبني كنغارا التي

احب، ويكون الرائد في تجارة صغار العجول.

وخلال السنوات العشر التالية، لحق به اشقاؤه الثلاثة، بعدما اثارتهم رسائله المتفائلة، ووعوده لهم بارض تفوق بحجمها اي مقاطعة بريطانية.

ادوراد كينغ الشقيق الأكبر، اختار مساحات كبيرة من الاراضي في اواسط كينغزلاند، ورسم ماثيو كينغ دائرة واسعة حول بضعة آلاف من الأميال المربعة في المنطقة الشمالية. اما كوينتن كينغ فلحق بشقيقه في كنغارا، ليكون ولده رفيقاً لوريثها سيروس كينغ، الفتى الذي كان يضاهي والده صلابة وعنفواناً.

واليوم تمتد اراضي عائلة كينغ من بلاد القناة، مروراً باواسط المنطقة، وصولاً الى الخليج. وكلهم من اصحاب المواشي. الابناء يعتدون بأن آباءهم كانوا ايضا من اصحاب المواشي.

وانعكست شمس الظهيرة على اجنحة الطائرة ذات المحركين، وهي تغوص أكثر فأكثر داخل المنطقة النائية. استرق بوب غافين الطيار الشاب، نظرة الى الفتاة الجالسة بقربه. كان هناك شيء أكبر من الأمتار القليلة يفرّق بينهما. ففي الدقائق الأخيرة انطوت الآنسة كولبي في عالم خاص بها تسيطر عليه كنغارا. اخذ يدرس جانب وجهها باهتمام. رعشة رضى واسترخاء، تهز ذقنها وهي تحاول السيطرة على التوتر الذي تفضحه كل حركة في جسمها الرقيق وكسر صوته حاجز الصمت.

«والآن . ما رأيك يا آنسة كينغ؟ هل ما زالت البلاد كما تتذكرينها؟»

وللحظة نظرت اليه كأنها لم تره ابداً في حياتها. ثم انفرج فمها عن ابتسامة حالمة.

«لم تتغير تقريباً، يا سيد غافين، رغم الأعوام الثمانية التي مرّت على آخر مرة رأيتك فيها. وطيلة ذلك الوقت كان لدي احساس غريب بأني تائهة في ارض لا انتمي اليها. اما الآن فانا في ارضي مجدداً».

صوتها تردّد خفيضاً متوتراً، فترك في اذنيه انطباعاً مثيراً. وتابعت حديثها بدون

أن تحول عينيها عن الأرض القريبة منها.

«تخيّل فقط يا سيد غافين، ان مصر وروما واليونان وبابل كلها مجتمعة هنا. انها أرض غريبة وغامضة، لكني اشعر بسيطرتها وبنارها تحرق عظامي».

ابتسم وهو يبحث بعينيه عن ادق الاختلاجات في جانب وجهها. انفعالها مسّ وتراً رقيقاً في قلبه، وكذلك الاشراقة الناعمة التي توجت تقاطيعها الشابة.

«انت تحملين لهذه الأرض حباً عميقاً. أليس كذلك يا آنسة كينغ؟ لا ألومك انها جوهرة هذا الجزء من العالم».

وأضاف بسرعة:

«اسمي بوب يا آنسة كينغ».

نظرت اليه كولبي مبتسمة، وهي تعي اهتمامه بها لانشغالها بالذكريات التي عادت لتحيا في أعماقها. سقطت السنوات، لترجع طفلة صغيرة في طريقها إلى الينبوع حتى صوتها صار أكثر طفولة وحلماً.

«هل تعلم بأني امضيت اجمل ايام طفولتي في هذا المكان؟ كنت اجري بين التلال، والأنهار، والسهول، لاحترق بنار الشمس، واتعلم لغة الطبيعة، والحياة المتوحشة، وروزنامة الورود، وتقاليد السكان الوطنيين. وكنت ادور في زورق ابن عمي دارت عندما كان يدعني افعل ذلك. كان بطلاً بالنسبة الي كان طويلاً وقوياً وجريئاً».

«اصدقك. انه صلب كوالده. الكل يهاب دارتلاند كينغ ويحترمه. انه رجل مميّز، لكن المرء يستطيع التقرب منه».

وصمت بوب غافين عندما شعر بأنه سيتكلم أكثر من اللازم. ففي حياته، كان سيروس كينغ معروفاً بتسلطه وديكتاتوريته.

هزّت كولبي رأسها حالمة، وهي تمرر اصبعها فوق عظمة انفها الصغير.

« دارت كما اذكره لم يكن تماماً كالعم سيروس. كان فيه الكثير من والدته. العمة راشيل ربتني. هل تعرف ذلك؟ كنت احبها كثيراً، رغم انها لم تكن

عمتي فعلا. سيروس كينغ ووالدي كانا اولاد عم، ورفيقي صبا. حضنتنا العائلة، أبي وأنا، بعد وفاة والدتي. كنت في الرابعة من عمري».

وحاول بوب غافين ان يكمل القصة بصوت فيه الكثير من الود والاهتمام.

«وعندما لقيت السيدة كينغ مصرعها في الحادث الأليم، عدت ووالدك الى المدينة».

هزّ رأسه بالايجاب وهو يحاول ان يسترجع في ذاكرته كل اطراف الاحاديث التي سمعها في السنوات الماضية. كان من المعروف انه جرت وقعة بين الاقرباء عندما اعلن سيروس كينغ عزمه على الزواج مجدداً ومن ارملة لها ولدان. فالقرار هذا، برأي غالبية الناس، جاء مبكراً خاصة انه لم يمض على وفاة السيدة راشيل كينغ الا اربعة عشر شهراً.

لكن احد لم يكن يعلم ان برادفورد كينغ، والد كولبي، كان يخفي في اعماقه حباً سرياً لراشيل الجميلة الى جانب الاعجاب والتقدير. كولبي شعرت بمقدار الالم الذي مزق والدها عندما شرع سيروس كينغ بالبحث عن زوجة جديدة، قديرة بما فيه الكفاية لتسلم شؤون المنزل الواسع. وكينغارا كانت بحاجة الى سيدة، وكان من واجبه ان يجد واحدة. زواج المصلحة بدا وكأنه الحل الوحيد الذي فرض ذاته. ولم يسامح برادفورد كينغ ابن عمه على ما فعل، ورفض طوال حياته حتى ان يسمع كلمة واحدة في صالحه. كان جوابه الدائم: كيف يستطيع اي كان استبدال راشيل؟ وكيف يأمل اي كان حتى مجرد المحاولة.

وضاعفت الاعوام من مرارته. وكانت سنوات مليئة بالوحدة بالنسبة اليهما معاً. غريب حقاً ان تكون أفكار والدها توجهت الى دارت. او ربما الامر ليس بهذه الغرابة. فدارت فيه الكثير من خصال والدته، وكان هذا كافياً بالنسبة الى رجل محتضر. فلقد احب دارت ورأى فيه الابن الذي كان من الممكن ان ينجب. سيرعاك يا عزيزتي كما فعلت والدته قبله. وامتلأت عينا كولبي بالدموع. كانت هذه تقريباً آخر كلمات قالها لها والدها قبل وفاته. والآن اصبح

دارت ولي امرها، والوصي على املاك والدها. ابن عمتها دارت!... بطل احلام طفولتها...

على الأرض ظهرت سيارة كبيرة تتسابق والتلال في محاولة لارهاب الصقور. وبعد عدة انحناءات، ترجّل السائق ليشير بذراعيه في حركات دائرية، دلالة على ان المدرج صار جاهزاً للهبوط. نظر بوب غافين الى الراكبة الشابة قائلاً: ضعي حزام الأمان يا آنسة كينغ، سنهبط. اطاعت كولبي فوراً وقلبها يخفق اضطراباً.

ودارت الطائرة الصغيرة مرّات عدة في الجو لتهبط اخيراً بدون ان تثير حولها غيوماً من الغبار. فرحت كولبي حزام الأمان وجلست تنتظر. حان الوقت لتلتقي بعائلة دارت الجديدة، زوجة والده بيلا، وستيفن الذي يماثلها عمراً، وسوزان التي تخرجت اخيراً من الجامعة.

كانوا غرباء تماماً بالنسبة اليها. والدها حرص على ذلك.

هدأت الطائرة تماماً، ففتح بوب غافين الباب، وحمل كولبي بين ذراعيه ليضعها برفق على الارض الغنية الحمراء. ولأول مرة منذ ثمانية اعوام طويلة، تشعر كولبي بارض كينغ تحت قدميها من جديد.

السحر القديم عاد ليغلفها وكأنها لم تبتعد عنه ابداً. الارض الخالدة لا يمكن ان تتغير تحت اشعة الشمس، وظلالها ما زالت غارقة في وهج الذهب. وصرخ في داخلها صوت رن صداه كناقوس كبير: هذه هي كنغارا. انها في ارضها ثانية.

٢ ـ آخر الليل لقاء

لن تنسى كولبي ابدا يوم عودتها الى الجذور. على جانبي مدرج الهبوط اصطف حوالى اربعين شخصا من السكان الوطنيين من خدم وعمال المزرعة الكبيرة. الكبار منهم في السن ارتدوا ثيابهم التقليدية الزاهية، وزينوا رؤوسهم بالالوان الصارخة والريش، اما اجسامهم فتألقت بخطوط من الأبيض والأحمر والأصفر.

وما ان وطأت كولبي المدرج حتى ارتفعت الاصوات مرحبة، وتمايلت الاجسام على ايقاع اقدامهم تضرب الارض وهم يغنون بلهجتهم الوطنية. لكن كولبي كانت تفهم جيداً ما يقولون «احبك. هل انسى من احب؟ لا . عودي الى الينابيع السعيدة.» واغرورقت عيناها بالدموع. احسّت بكل عواطفها تنفجر في تلك اللحظات. معظم هؤلاء الناس اختارتهم ودربتهم العمة راشيل، فبرهنوا عن وفاء واخلاص للبيت الذي ضمهم. الكبار منهم امضوا سنوات عدة من عمرهم في خدمة عائلة كينغ، للاهتمام خاصة بالأطفال البيض الذي وضعوا تحت رعايتهم.

بن العجوز وقف في مقدمة المستقبلين. هو احد كبار قبيلة الكنغارا تلقى ثقافة الرجل الابيض فاستوعبها جيداً وبدون جهد، لكنه لم يفقد شيئاً من حضارته الخالدة. وبدا وجه العجوز مشرقاً بلون نحاسي تحت شلال من الشعر الابيض.

وتوجّهت كولبي اليه مباشرة ، مادة يدها بمحبة:

«انت لا تتغير يا بن. تماماً كالارض المحيطة بك».

أشرق وجه العجوز فخراً واعتزازاً، وانحنى يحييها باحترام، وعيناه ترقصان فرحاً.

«اهلاً، يا آنستي، اهلاً».

نادراً ما كان يتكلم، لكن كولبي احست انه يحتضنها بالنظرة التي يغمرها بها. ترنحت قليلا وهي لم تزل واقفة في مكانها. لقد سافرت أكثر من الفي ميل في الأربع وعشرين الساعة الماضية.

وضع بن يده على كتفها بحنان قائلاً:

«اعتقد انك متعبة يا آنستي».

ضحكت كولبي بهدوء، فرنت ضحكتها وكأنها صرخة ارهاق.

«انا تعبة جداً يا بن. لكن كم هي رائعة العودة الى الوطن. انها المرة الاولى بعد ثماني سنوات. لكنها لا تزال كما الامس، ورائحتها كما الامس مزيج من عطر الورود والاشجار».

ابتسم مؤيداً، واجتمعت بشرته الداكنة في شبكة رقيقة من التجاعيد الرمادية.

«ها هو سيدي».

قالها ببطء، فاستدارت كولبي لتلاحظ للمرة الاولى سائق السيارة النحاسية اللون التي تحمل حرف الكاف محفوراً بالذهب. كان شاباً رقيق الجسم، تبرز تقاطيع وجهه الجذاب بحدة تحت تاج كثيف من الشعر الاسود. نزع قبعته العريضة وانحنى لها باحترام مبالغ فيه شيء من الاداء المسرحي. ضحكت كولبي ومدت يدها مرحبة.

«لا بد انك ستيفن».

ابتسم لها وامسك بيدها الممدودة.

«لا أحد غيري يا آنستي. المرشح الثاني لوراثة الامبراطورية في حال حدوث شيء ما للاخ الكبير دارت».

«لنأمل ألاّ يصيبه شيء إلاّ بعد عمر طويل».

أجابت كولبي بسرعة وفي صوتها شيء من الاستغراب:

«انا متعلقة جداً بابن العم دارت».

فردّ ستيفن بعفوية:

«ومثلك معظم الفتيات، يا آنسة كولبي. دارت من أكثر العازبين شعبية لدى النساء. وانا بعده طبعاً».

«كم احسدك يا ستيفن».

اجابته بسخرية، واستدارت لتراقب بن الذي كان ينقل حقائبها الى السيارة والى جانبه بوب غافين يحاول جاهداً ان يفتح حواراً مع العجوز.

ففي المنطقة اشتهر بانه افضل صيّاد في البلاد، وأروع من يروي النكات. هذا اذا تمكن المرء من ان يجعله يتكلم. وعادت كولبي بنظرها الى ستيفن، فاسرع يقول:

«هل تشرفنا الآنسة كولبي بتفقد الصفوف؟»

ولم تخل نظرته من عبث ساخر وهو يفحص وجهها الصغير.

«يسرني ذلك يا ستيفن».

ومشت في اتجاه صفوف السكان الأصليين المنتظرين. الوجوه كلها اتجهت صوبها باحترام ممزوج باعتداد واضح بالنفس، وبفخر اكيد بعرقهم. دارت كولبي بين الصفوف مبتسمة للجميع، محيية بالاسم الوجوه الأليفة التي عرفتها عندما كانت طفلة.

«كنت رقيقة جدا ومتواضعة في معاملتك لهم. نحن لم نشهد مثل هذا الاستقبال عندما جئنا الى هنا».

هكذا علق ستيفن فور عودتها اليه. فاجابته كولبي بصراحة:

«أسفة لذلك يا ستيفن. واود هنا ان الفت انتباهك الى اني لم أكن اتظاهر بالتواضع. انا احب هؤلاء الناس. كبرت بينهم ومعهم. لو استطعت ان تكسب ثقتهم فانهم يصبحون اوفياء لك. كانت عمتي راشيل تقول ان راحتهم يجب ان تكون من اهم اهتماماتنا. كانت سيدة عظيمة».

«لا شك في ذلك يا آنسة كولبي. ما زلنا نسمع الكثير عنها من كل زائر يمر بالمزرعة».

كان يتكلم بمودة قريبة من الطابع الرسمي. وفجأة ضرب رأسه بكفيه وكأنه تذكر أمراً مهماً:

«امي و سوزان تنتظراننا. دارت ذهب لزيارة عائلة تينانت المجاورة لنا على الحدود الشمالية الشرقية».

رفعت كولبي حاجبيها متسائلة.

«التينانت؟ لا تقل انهم اشتروا موغارا من الكولونيل العجوز؟»

«العجوز توفي منذ اربع سنوات بالسكتة القلبية. لا بد انه كان متقدما جداً بالسن، وعائلة تينانت استقرت مكانه الآن. انهم بالفعل اناس متحضرون من النوع الذي يصلح أن يجاوره المرء».

«حقاً؟»

تمتمت كولبي بشرود. الكولونيل العجوز كان مؤسسة قائمة بحد ذاتها في هذه البقعة النائية، رائد المدرسة القديمة. انها تذكر كم كان معتدا بنفسه وبارادته الحديدية، لهذا ساءها ان تسمع أحداً يتحدث عنه بهذا الاستخفاف. ولاحظ ستيفن انزعاجها فقال:

«آسف. أخطأت اليس كذلك؟ اعرف ان دارت كان يقدر العجوز كثيراً لكنه كان يبدو جافاً وقاسياً».

«ربما لكنه كان يملك روح النكتة والمرح ايضا».

واشرقت ابتسامتها الرائعة فتجاوب معها بسرعة.

«في اي حال، يا آنسة كولبي، نحن سعداء جداً لوجودك معنا. يشعر المرء بالوحدة هنا بدون فتيات جميلات يتحدث اليهن».

وتسللت الى عينيه الزرقاوين نظرة حائرة. فابتسمت كولبي لتساؤله الصامت.

«اعرف ماذا تقصد. اعتقد ان لاستعداداتك الطبيعية علاقة بالأمر يا ستيفن!»

فقهقه الشاب عالياً.

«الآن انا لا أعرف ماذا تقصدين. مع هذا هناك متسع من الوقت تعالي يا كولبي يجب ان نودع بوب. لا بد انه يرغب في الاقلاع قبل حلول الظلام».

وقبل ان ينهي عبارته اقترب منهما الطيّار الشاب.

«هل كان كل شيء على ما يرام يا آنسة كينغ؟»

سألها بجدية يناقضها البريق المرح في عينيه.

«نعم. شكراً يا سيد غافين... اقصد بوب. لم اكن اتوقع رحلة بهذا الهدوء».

«شكراً واهلاً بك دائماً. علي ان أرحل الآن. ستيفن. هل لك ان تبعد الآنسة كينغ عن الممرج. لا أعتقد أنها تحب طعم الغبار».

واصر بوب على مرافقتها الى السيارة، لكنه خص كولبي بجملته الوداعية:

«سأراك قريباً».

وفرحت كولبي بالوعد. ففي هذه الأرض النائية القليلة السكان، يتخذ الاتصال بانسان آخر اهمية لا تعرفها المدن.

ادار ستيفن محرك السيارة، واخذ يطلق الزمور تحية لبوب الذي وقف بعيداً يلوح لهما مودعاً. انزلت كولبي زجاج النافذة لتودع بدورها المستقبلين الذين بدأ شملهم يتفرق. واخيراً أستراحت في مقعدها، واخذت نفساً عميقاً.

«كان الأمر رائعاً».

«نعم».

أجاب ستيفن وكأنه يتنبه للمرّة الاولى. وامتزجت ضحكاتهما.

واسترق ستيفن نظرة الى القادمة الجديدة، ابنة عم دارت الصغيرة. انها صغيرة بالفعل لكنها ليست ابداً كما تصوّرها. وتختلف ايضاً عما توقعته والدته وشقيقته سوزان. فبالاضافة الى جمالها كان لصوت كولبي طابع مميز يجمع بين الدفء والانوثة الفائقة. انه من ذاك النوع من الأصوات، الذي يجد الرجال انفسهم يستمعون اليه بدون الاهتمام فعلا لما يقول. ترى كيف ستعاملها نساء

المنزل، والدته و سوزان وروشيل تينانت التي فرضت نفسها كفرد من العائلة برغم انها لا تعني له اي شيء شخصياً. وتختفي كل رقتها وادعاءاتها عندما لا يكون دارت موجوداً.

وأخذ ستيفن يحدّق في اسراب النعام وهي تهرول بعيداً عن المدرج، قبل ان يتفوه بأول شيء يرد على ذهنه.

«اعتقد انك افتقدت والدة دارت. يقال انها كانت سيدة عظيمة.»

بدا صادقاً في قوله، لذا اجابته كولبي بعفوية:

«نعم، ولا زلت افتقدها يا ستيفن. كانت امرأة رائعة، طيبة، نشيطة ونقية، تحيط بها هالة من الاشراق».

«الرجال يتزوجون امهاتهم احياناً»

وبسرعة تدارك خطأه، فأردف موضحاً:

«تعرفين ما اعني. اقصد ان الرجال يبحثون عادة عن الفتاة التي تشبه والدتهم».

دهشت كولبي لما قال، وبلعت ريقها بصعوبة قبل ان تعلق قائلة:

«حسناً. افهم فكرتك يا ستيفن. قل لي هل تتحدث بصورة عامة ام انك تقصد شخصاً معيناً؟»

تفحصها ستيفن بلمحة خاطفة.

«الزمن وحده كفيل بالاجابة، آنسة كينغ. من يعرف ماذا تخبيء له الأقدار».

«وماذا عنك؟»

أجابت كولبي حالمة. وفجأة تحول صوتها من الجدية الى المرح:

«انظر ستيفن. ما اروع التلال امامنا. الاعشاب الخضراء تتأرجح عليها وكأنها تتايل فرحاً بالضوء المنسكب شلالات من الفضة تتلألأ بينها الحصى كأحجار كريمة. كنغارا، ها انا آتية اليك. افتحي ابوابك لاستقبالي».

وكأن السيارة فهمت شوق الفتاة الى ارض احلامها، فاسرعت تشق طريقها وسط النباتات الكثيفة التي احتجت على الاستخفاف بها بان استجمعت كل عطرها ترسله موجات من الطيب تسلقت الأشجار الباسقة، التي تحول ظلالها

الوافرة أكثر الأيام حراً إلى نسمات .

وفكّت السيارة الحصار الأخضر عنها لتركض غير مبالية برائحة المسك التي تداعب الهواء، وكأنها تريد ملاعبته. وعندما ينست الاشجار من استبقاء كولبي، ارخت اغصانها عن المنازل الصغيرة المحيطة بالمزرعة وبالبيت الكبير.

وتجوّلت عينا كولبي في الطريق المعبّد بحصى بيضاء، لتستقرا أخيراً على بيت طفولتها المنتصب باعتداد، متوجاً بالرداء القرمزي الذي خلعته عليه شمس المغيب. كنغارا الرائعة! لم تنسها ابداً. هذه الواحة الصغيرة المستلقية بكسل في احضان الزهور البرية، مستكينة الى الأيدي الصبورة المحبة التي تعتني بكل حبة من ترابها.

حتى وهي طفلة، كانت تقف طويلاً امام انعكاسات الشمس على السور الحديدي الذي يحيط بالشرفات كتخريج رقيق سهرت على نسجه ايدي النساء، فاستبقى نور الشمس ليعكسها مزيداً من الاضواء على عالم كنغارا السحري.

البيت الكبير رفض منذ تأسيسه كل مظاهر الحضارة الزائفة، واستبدلها بجمال الارض المتوحشة العذراء، فكانت كل حجارته جزءاً من صلابة الصخر ونعومة الرمال.

كم هو جميل هذا البيت العريق. ربما اجمل ايضاً من الايام الخالية عندما كانت طفلة تسري الحرية في دمائها، وفي عقلها الصغير الدائم الحيرة والتساؤل. اليوم لم تعد طفلة. والسنوات الطويلة الموحشة التي ارهقت كاهلها في ايام الغربة، اصبحت مجرد ذكرى.

وتوقفت السيارة امام الشرفة الامامية، حيث وقفت بيللا وسوزان تنتظران الضيفة الشابة. ونزلت بيللا الدرجات القليلة، وثوبها البنفسجي يتأرجح بانانة حول جسمها الطويل الرقيق. مظهرها ومشيتها كانا كما يتوقع المرء من سيدة كنغارا ان تبدو وتمشي. حتى العم سيروس لم يكن ليستطيع وحده تدبير شؤون المزرعة الكبيرة بدون مساعدة سيدة قديرة تقف الى جانبه. لكنها لم

تستطع ان تقنع والدها بذلك. فهذه المرأة ليست بالعمة راشيل، برغم شخصيتها المميزة واناقتها الواضحتين حتى عن بعد.

واجتازت بيللا الامتار القليلة التي تفرق بينهما، واتسعت عيناها الزرقاوان الباردتان عندما استقرتا على كولبي. ثم انفرجت شفتاها عن ابتسامة غاية في الجاذبية.

«اهلاً بك في كنغارا يا عزيزتي. نحن سعداء لأنك معنا».

وتحوّلت الى ابنها قائلة:

«انقل حقائب كولبي الى الشرفة يا ستيفن واتركها هناك».

وصعد ستيفن الدرجات الاربع المؤدية الى البيت وهو يتظاهر انه يعاني صعوبة بالغة في حمل الحقائب. ابتسمت بيللا لحركاته المسرحية وعلقت قائلة لكولبي:

«هذا هو ستيفن. تعالي الآن لأعرفك بسوزان. دارت اضطر للخروج. احد الجيران استنجد به لأمر ما».

ولحقت كولبي ببيللا، لتحيي الفتاة المستلقية بلا مبالاة على سور الشرفة الحديدي. وفاجأها صوتها الواضح الشاب عندما قالت:

«انت لست كسائر فتيات دارت».

قالتها باستغراب وكأنها ترى الأمر غريباً لدرجة لا يمكن معها تصديقه. انزعجت بيللا، واشتعل وجهها الجذاب غضباً. قبل ان تنظر الى كولبي معتذرة.

« كولبي عزيزتي. أود لو تعذرين سوزان. انها تمرّ حالياً بفترة عصيبة».

ورمت ابنتها بنظرة قاسية.

«اما انت يا سوزان لو تتذكرين ابسط اصول الادب».

«آسفة».

تمتمت سوزان الكلمة مرغمة. ومع هذا الاستقبال الجاف، وجدتها كولبي فتاة جميلة، او كان من الممكن ان تكون جميلة لو اهتمت أكثر بمظهرها الخارجي.

فهي طويلة القامة، رشيقة الجسم، ولها ملامح وجه والدتها الجذاب. شعرها الاسود رفعته الى الوراء على شكل ذيل الحصان، اما سراولها وقميصها فكانا في حالة رثة.

وابتسم ستيفن مداعباً شقيقته:

«لا تهتمي بها يا كولبي. انها الابنة الوحيدة والمدللة للسيدة كينغ، من مزرعة كنغارا».

تجهّم وجه سوزان، واضطرت الأم للتدخل ثانية بما تبقى لها من صبر:

«يكفي يا ستيفن. لا ادري ما ستظنه كولبي بنا».

«فلنسألها، كولبي ما رأيك بنا؟»

ولمعت عينا كولبي بضحكة مكتومة:

«سأحتفظ بحكمي حتى أتعرف اليكم أكثر».

واستقرت ثلاثة ازواج من العيون عليها تتفحصها باهتمام. سوزان كانت محقة. الآنسة كولبي كينغ ليست كما توقعوا. ثيابها البسيطة العملية تفضح بخطوطها المدروسة توقيع اشهر دور الازياء. الم يقل لهم انها من الفرع الفقير من عائلة كينغ، وان لا مال لديها يذكر؟

بشرتها المشرقة الفاتحة كانت مفاجأة لهم. فمعظم افراد عائلة كينغ بشرتهم داكنة. دارت مثلاً يبدو ببشرته النحاسية كالهنود الاصليين برغم عينيه الغريبتين الفاتحتين.

شعرها القصير الناري الخصلات يتوّج وجهاً رقيقاً، فيه خدان عاليا الفكين أما عيناها فواسعتان خضراوان تتألقان تحت حاجبين داكنين لهما حد السيف وميزات خاصة بهما. وفي عينيها ايضاً اعتداد واضح بالنفس، واصرار التحدي مع لمحة من الشفاوة. بشرتها الصافية لا تشوبها نقاط النمش التي ترافق عادة ذوات الشعر الأحمر، نتيجة حساسيتهن لأشعة الشمس.

وابتسمت كولبي للانطباع المرتسم على وجوههم.

«ربما تطلعونني لاحقاً على رأيكم».

وطبعا كان ستيفن اول من تبرع بالاجابة:

«سنخبرك فوراً يا عزيزتي، نجحت في الامتحان».

ولم تدع بيللا ابنها يكمل حديثه:

«هل سنبقى النهار كله واقفين نتحدث. تعالي يا كولبي فلندخل المنزل».

وسبقتهم الى غرفة الجلوس، ووراءها دخلت كولبي. كم هي جميلة هذه الغرفة بمساحتها الواسعة التي يتوزع في ارجائها مزيج مدروس من الاثاث القديم والحديث. اشعة الشمس المحتضرة تسلّلت من النوافذ لتتكاسل على الخشب المتلهف لالتقاطها، ولتحيي الخطوط الصفراء الذهبية التي تزين الستائر واقمشة المفروشات.

اشعلت بيللا الاضواء الكهربائية، فخرجت راشيل كينغ من الظلمة لتعود الى الحياة. رسمها يتصدر الغرفة ويسيطر عليها. صورة امرأة جميلة في ثوب للسهرة بلون السماء، يتهدّل شعرها الطويل الاسود حول وجهها الجذاب الذي تزيده بريقاً عينان فيهما الكثير من السحر.

ولم تستطع كولبي ابعاد نظرها عن اللوحة، حتى تناهى اليها صوت بيللا:

«لا شيء يتغيّر. أليس كذلك يا كولبي؟ آه نسيت انك آتية من سفر طويل. لا بد انك مرهقة».

«لا يبدو عليها ذلك يا امي».

قال ستيفن مقاطعاً والدته. فتجاهلته هذه الاخيرة لتتابع حديثها:

« سوزان سترشدك الى غرفتك. دارت اختارها لك. اعتقد انها غرفتك القديمة. سيكون لديك متسع من الوقت للراحة ولاستبدال ملابسك قبل موعد العشاء. أمل ان يعود دارت باكراً».

«شكراً لك يا سيدة كينغ».

«اسمي بيللا. او العمة بيللا اذا كنت تفضلين ذلك. في أي حال انت قريبة دارت. وبصراحة لا اعرف اين كنا سنصبح لولا وجوده».

«سأدعوك اذاً العمة بيللا».

ولحقت كولبي بسوزان الى الجناح الغربي. لم يتغير شيء، فعدا لمسة او لمستين شخصيتين بقيت الاشياء كلها في مكانها. وقطبت كولبي حاجبيها وهي تتذكر لمحة القلق التي ظللت وجه بيللا عند ذكرها لاسم دارت. عرفت من محامي العائلة ان سيروس كينغ لم يغيّر الوصية التي كتبها مباشرة بعد ولادة دارت. وهذا يعني ان دارت ورث وحده كنغارا وكل الاراضي التابعة لها. اي زوجة والده وولداها يعتمدون الآن على طيبة دارت واستعداده للانفاق عليهم. أمر غريب فعلاً. لكن سيروس كينغ كان معروفاً بتصرفاته غير العادية توفي في وقت كان الجميع يظنون بأنه سيعمر طويلاً. وأغلقت كولبي ذهنها عن هذه الأفكار فهذه ليست مشكلتها.

فتحت سوزان باب غرفة كولبي وهي تبتسم هازئة:

«غرفة ابنة عم دارت العزيزة».

ولم تنتبه كولبي لتعليقها الساخر، فالذكريات خطفتها على عتبة الباب لتعيدها سنوات عدة الى الوراء.

«لا تهتمي بي يا كولبي، اعتقد اني مغرمة به كسائر الفتيات، واظن انك تحبينه ايضاً».

وانتزعت كولبي نفسها من حصار الذكريات لتحاول التركيز على ما تقوله الفتاة.

«آسفة يا سوزان، لم اسمعك».

«قلت انك ايضاً مغرمة بدارت».

«لا استطيع ان اقول باني مغرمة بأحد. لم اعرف معنى الحب بعد».

«طبعاً لم تعرفيه. نسيت انك من سلالة عائلة كينغ الصلبة».

«وهل هذا عيب».

«لا... احياناً. لا بد انك كنت تقدسينه وانت طفلة. دارت يقول انك كنت تركضين في كل ارجاء المزرعة كغزال بري».

«هل قال ذلك فعلاً؟ غزال بري؟»

«هل كنت كذلك؟»

«تقصدين برّية الطباع؟ نعم. ولست متأكدة من اني اصبحت اليفة الآن».

«لا تتهربي من الجواب. اريد ان احذرك منذ الآن بان دارت وجد الفتاة المناسبة ونحن نوافقه اختياره».

«تعنين انك توافقين شخصياً على اختياره يا سوزان».

وابتسمت كولبي وهي تتوجّه الى طاولة الزينة المزينة بتماثيل رقيقة من الكريستال، تلمستها بنعومة، تحمل في شفافيتها شخصية العمة راشيل. الوان الغرفة وحدها تغيرت من الوردي والابيض الى العاج المحلى بالذهب. الستائر ومفارش السرير تألقت بلون اخضر فيه شيء من عمق عينيها، وعلى الجدران اصطفت مجموعة رائعة من الزهور الاسترالية البرية سجينة في اطارات ثقيلة من الذهب.

«غرفة مترفة أليس كذلك يا آنسة كولبي كينغ؟ دارت حرص على ذلك. لا بد انه تذكر اخيراً عينيك الخضراوين. لكن هذا لن يجديك شيئاً. ستعرفين ما اقصد حين ترين روشيل تينانت!»

«انا في شوق لمعرفتها. واود ان اذكرك هنا يا سوزان بان دارت يبقى ابن عمي، مهما كانت درجة جاذبيته لدى الأخريات».

ولم تعد كولبي تحتمل استفزاز هذه المراهقة لها. لقد مرت بفترة عصيبة خلال الاشهر القليلة الماضية وهي في حاجة الى الراحة والاستقرار، لكنها عادت لتضعف امام حيرة سوزان وقلقها.

«اود لو نصبح صديقتين يا سوزان. انا لن ابقى هنا الوقت الكافي لاعرقل مشاريعك يا عزيزتي».

«انا صديقة روشيل. تخبرني بكل ما يحدث معها».

اصرار سوزان على متابعة الحديث دفع بكولبي لأن تكون أكثر صراحة.

«أسفة سوزان. انا تعبة. هل تعذرني حتى موعد العشاء».

«لا شيء يسرني اكثر... يا آنسة كينغ!»

وألقت الكلمات الأخيرة وكأنها توجه اهانة كبيرة لكولبي، التي أغلقت وراءها الباب ضاحكة.

ونسيت كولبي سوزان وهي تقف أمام النافذة العريضة تراقب تماوج الألوان بين البنفسجي والاحمر والوردي على الافق الغربي، الذي رسم خطاً فضياً بين التلال والسماء.

وهتفت كولبي عالياً:

«اليس المشهد رائعاً! الاشياء كلها هنا رائعة الجمال».

لم يعد دارت في موعد العشاء. فتناولوا طعامهم من دونه. المائدة تألقت بمفرش ابيض ابرز لونه الشفاف بريق الادوات الفضية وزخرفة الصحون الصينية الشميكة.

وانتقلت بنظرها الى افراد الاسرة. بيللا انيقة جداً في ثوبها الحريري البنفسجي، اللون المفضل لديها. ستيفن كعادته كان يضج نشاطاً وحيوية. اما التنازل الوحيد الذي قامت به سوزان فكان استبدال سروالها الرث بآخر من الجلد.

ولم يكن العشاء ناجحاً برغم اصناف الأطعمة الشهية التي برعت الطباخة في انجازها. وابتسمت كولبي لمديرة شؤون المنزل وهي تنظف المائدة من الصحون المستعملة. سيدة صغيرة ممتلئة الجسم، في وجهها طيبة المزارعين، وفي عينيها ذكاء فطري. ولاحظت بيللا اهتمام كولبي:

«أسفة يا كولبي. لم اعرفك بها. انها السيدة نيل ايفانز زوجة كبير عمال المزرعة... نيل هذه كولبي، قريبة دارت».

«اهلا بك في كنغارا يا آنسة كولبي. أمل ان يكون العشاء اعجبك!»

«كثيراً يا سيدة ايفانز. انت طاهية ماهرة».

«عليّ ان أكون كذلك. دارت يحرص على احاطة نفسه بالترف والاشياء الجميلة».

واختفت في المطبخ لتعود بعد دقائق بالجبن والحلوى والبرتقال. فتمتمت

سوزان ساخرة:

«طبعاً علينا ان نعمل جاهدين لارضاء دارت، فيكون فخوراً بنا».

تنهّدت والدتها في ضيق بدون ان تقول شيئاً. وكي تقطع كولبي الصمت الثقيل الذي جثم على الغرفة غيّرت مجرى الحديث:

«اود مساعدتك قدر الامكان، يا عمتي بيللا، طيلة الفترة التي سأمضيها بينكم. هل في ذهنك عمل ما استطيع القيام به».

«لا تقلقي سنجد لك عملا».

علق ستيفن بمرح. فاسكتته والدته بتعب:

«يكفي يا ستيفن. اما انت يا عزيزتي كولبي فشكراً على اقتراحك عندي لك...»

وتوقفت عن الكلام فجأة كأن الفكرة خانتها.

فسارعت كولبي الى القول:

«محاسبة، مراسلة...»

نهضت سوزان بغضب، وصرخت:

«انا حائزة على شهادة في الطباعة على الآلة الكاتبة. لكن يبدو اني لست بالكفاءة الكافية. او ربما لست بالمستوى الذي يرضي دارت، واكتشف الآن اني لم اعد اعجب امي أيضاً. حسناً دعوا هذه الآنسة المذهلة تتسلّم كل المهام، وسنرى كيف ستتصرف!»

«كفى يا سوزان».

قالها ستيفن بهدوء، وبدون ان ينظر اليها.

فابتعدت سوزان مسرعة قبل ان يفضح احدهم الدموع السجينة في عينيها.

واضطربت كولبي لنفور سوزان الواضح منها. فالتفتت الى بيللا مستنجدة، لتجدها مستغرقة في تفكير تفاحة وكأن الحديث لا يعنيها. وعندما شعرت بيللا بحيرة كولبي وحزنها، حاولت تبديد الغيوم بتغيير الموضوع.

«انت لا تشبهين كثيراً افراد عائلة كينغ، يا كولبي. لا بد ان فيك الكثير من ملامح والدتك».

«اعتقد ان لي لون البشرة ذاتها. كنت في الرابعة من عمري عند وفاتها، ولذا لم تسنح لي الفرصة لمعرفتها فعلاً».

«الأمر محزن حقاً!»

ولاحظت بيللا الشحوب الذي ظلل وجه كولبي.

«انت مرهقة يا عزيزتي. يجدر بك الذهاب الى الفراش باكراً».

واحمرّت كولبي بالارهاق يصل الى اطراف اصابعها. كانت تعرف ان السبب ليس رحلتها الطويلة الى كنغارا بل توترها العاطفي. كانت تخشى هذا اللقاء الاوّل مع عائلة دارت، ولذا حشدت كل طاقتها الذهنية لتواجه مخاوف طفولتها. الآن لم يعد هناك شيء تتوقعه، عدا رؤية ابن عمها دارت. واستفاقت من احلامها على صوت ستيفن.

«هل تستطيعين ركوب الخيل يا كولبي».

«طبعاً. استاذي كان ماهراً حقاً. امضى دارت ساعات طويلة في تحسين اسلوبي».

« لدارت اسلوب خاص ومميّز في التعامل مع الخيول. رأيته مرة...»

وقاطعها صوت أنية تتكسرّ في المطبخ، تبعه صوت السيدة ايفانز معتفاً الفاعل. واغرقت كولبي في الضحك.

«أسفة يا عمتي بيللا. لم املك نفسي. ما زالت حيّة في ذاكرتي اصوات الاواني تتكسر على ايدي الخادمات الصغيرات اللواتي لا يعملن بجدية».

ودخلت السيدة ايفانز الغرفة حاملة صينية القهوة.

«أسفة يا سيدة كينغ. يبدو ان الصحون تنساب من بين أصابع الخادمة الجديدة كرمال الصحارى».

«أمل ان يتغيرّ الوضع قبل ان نفقد الأواني كلها. دعي القهوة هنا يا سيدة ايفانز وعودي الى منزلك فلا بد ان زوجك ينتظرك».

«ألا تعرفين موعد عودة السيد دارت الى المنزل».

«بصراحة لا».

«حسناً سأذهب. تصبحون على خير».

«وانتم من اهل الخير يا سيدة ايفانز».

وبعد انتهائهم من تناول القهوة، عرضت كولبي تنظيف الطاولة من الاكواب والصحون، فاسرع ستيفن لمساعدتها، مما لفت انتباه بيللا التي علقت ضاحكة:

«هذه سابقة في كنغارا! ان يعرض ستيفن خدماته».

«لا بد انه تأثير كولبي يا امي».

بعد ساعات كانت كولبي لا تزال مستيقظة تحدق في الظلمة التي لم يكن يضيئها أي شعاع قمر. النجوم فقط كانت تتألق في السماء، وكأنها احجار من الماس تناثرت بفوضى مدروسة. الهواء ابى ان يخلد الى النوم واصر على متابعة صفيره الهادىء قرب جانب المنزل. السكون خيّم برهبته على جميع الكائنات ولم يجرؤ على تحديه الا طير ليلي اختفى في مكان ما يتنهد عالياً.

وبرغم تعبها الشديد لم تتمكن كولبي من النوم. جلست في فراشها تستنشق رائحة الياسمين تحاول عبثاً ان تعرف سبب توترها. استرجعت في ذهنها صورة افراد عائلة دارت، وتوقفت طويلا عند سوزان حائرة في تفسير نفور الفتاة منها. وقطع حبل افكارها صوت سيارة تهدر في البعيد. ففي السكينة تفرض اصغر الاصوات ذاتها على الاعصاب الساهرة.

نهضت كولبي من فراشها واشعلت الضوء الصغير قرب السرير. الساعة كانت تجاوزت الحادية عشر والنصف. لابد انه دارت عائد من منزل تينانت. ابتسمت حالمة. هو اذاً من كانت تنتظر! بحثت عن الرداء الذي تضعه عادة فوق ثياب النوم، فوجدته ملقى على مقعد قريب. تأملته طويلاً. كم هو جميل هذا الرداء! ابتاعه لها والدها من الشرق الأقصى. حريره الأخضر يضفي تألقاً مميزاً على عينيها، اما الفراشات المتناثرة عليه بالوان صارخة، فتزيدها رقة وانوثة. رداء

تستطيع وضعه اينما كانت.

وارتدت كولبي الثوب، وضمته جيداً عند الخصر. ثم وقفت امام المرآة تسرح شعرها باهتمام. ولم ترضها صورتها المنعكسة في الزجاج !!- تول فاضافت لمسة من أحمر الشفاه الوردي على شفتيها، لتمسحها بعد ثوان. واخيراً جلست تنتظر مجيء دارت، وهي تحاول جاهدة السيطرة على توترها وترقبها.

دارت! اتراه تغير؟ هل اضفت عليه احلام طفولتها تلك الصفات الرائعة التي تجمع بين القوة، والمرح، أو الجدية. وأطلت عليها ابتسامته المشرقة من وراء شريط الذكريات، فأحست للمرة الأولى في تلك الأمسية المتعبة، براحة عميقة غسلت تشنج أعصابها، واسترخت بهدوء على المقعد الوثير.

وبعد دقائق، سمعت كولبي صوت سيارة توقف في الممر المؤدي الى المنزل، تلاها صمت قصير، ثم وقع قدمين على الحصى. وترددت كولبي لدقائق معدودة، قبل ان تفتح باب غرفتها لتنزل الى الطابق الأسفل. خفاها الرقيقان لم يكن لهما اي صدى على الأرض الخشبية.

في الرواق كان الضوء خافتاً، وكذلك في غرفة الجلوس. أما المطبخ فكان يشتعل نوراً. تسللت اليه كولبي على اطراف اصابعها، ووقفت ساكنة على العتبة. كان دارت منحنيا على مائدة الطعام، يتناول عشاء سريعاً ومؤلفاً من بيض، وحبتي طماطم، وقطعة جبن، ورغيف خبز. ورغم انه كان يدير ظهره لها، الا انه قال فجأة:

«لا تقفي هناك يا كولبي. تعالي لاراك».

وغصت كولبي انفعالا، لكنها حاولت ان تخفي توترها بتعليق ساخر:

«هل لك عينان في مؤخرة رأسك يا سيد دارتلاند كيتغ؟»

«فقط عندما يكون الامرمتعلقاً بك يا عزيزتي. الا تذكرين كم مرة انتشلتك من النهر عندما كنت طفلة صغيرة؟»

وببطء، استدار دارت ليتفحصها بحنان. لم يتغير وجهه كما عهدته ما زال قويا، معبراً، فيه شيء من القسوة ينساها المرء حين يغرق في عينيه الدافئتين.

تنبع منه ثقة واضحة بالنفس، وانطباع بالسيطرة يصل الى حد التعالي. لكنه تعالي الرجل الذي استطاع ان يحقق شيئاً مهما في حياته. دارت لم يتغير، اما كولبي فلم تعد طفلة.

«اهلاً بابنة عمي الصغيرة. اخيراعادت الشاة الضائعة الى المنزل».

ومرّت الثواني بطيئة وهو يحدق في وجهها الجميل. وتلاعب شبح ابتسامة رقيقة على زاوية فمه قبل ان يقول مداعباً:

«هذه هي ابنة عمي المشاغبة. ما زلت كما كنت عدا بعض التغيرات البسيطة هنا وهناك. لكن اخبريني اين ذهبت بالنمش؟»

واقتربت منه كولبي بخطى مترددة.

«نمش؟ وجهي لم يكن ابداً مغطى بالنمش. ألا تتذكر يا دارت؟»

وحاولت كولبي السيطرة على نبراتها حتى لا تفضح اضطرابها الداخلي.

«نعم اتذكر يا عزيزتي. كنت طفلة برّية لكننا سنسجنك في قفص هذه المرة».

خانها الجواب فابتعدت عنه لتشغل نفسها باعداد طعام العشاء. راقبها دارت وهي تكسر البيض في الوعاء الكبير وكأنها تقوم بعمل مهمّ يحتاج الى كثير من الانتباه. وأخيراً رفعت عينيها اليه وقالت بحزم:

«ما زلت برّية يا دارت . لم ولن اتغير».

«معك لا يستطيع المرء ان يتوقع ما سيحدث لاحقاً. اعرف انك لا تقصدين المشاغبة، فهذه طبيعتك النارية. يبدو ان لون شعرك الأحمر له علاقة بتصرفاتك. الناريات الشعر معروفات بانهن ناريات الطباع أيضاً. لكني مسؤول عنك الآن وأعرف انك ستنفذين كل ما يطلبه ابن عمك دارت منك».

ولمعت عيناها ببريق شقاوة طفولية:

«ارى انك لا زلت محتفظاً بتعاليك القديم يا ابن عمي العزيز. نسيت كم انت عنيد».

«وانت ايضاً. كنت دائما تتصرفين على مزاجك حتى وانت طفلة».

ووجدت كولبي نفسها تخفق البيض بعنف غير ضروري.

«لكني لم اعد طفلة يا دارت».

«لاحظت ذلك. اصبحت فتاة كبيرة اذاً. في اي حال الكبيرات يتسببن بمشاكل اكبر من الصغيرات. هذا هو رأي جميع الرجال المساكين».

وضحك عندما لاحظ اضطرابها. تناول سيكارة، ووقف بتكاسل ليجيء بعود الثقاب.

«صحيح اني اعيش هنا في عالم للرجال، لكني افكر بالنساء احياناً، وخاصة ذوات البشرةالفاتحة».

اشعل سيكارته وعاد الى المائدة ليتابع قائلاً:

«في اي حال روشيل هنا دائماً».

وللمرة الأولى تشعر كولبي بنوع من التوتر بينهما. جديد عليها هذا الشعور. فيه شيء من عالم الكبار، ولا علاقة له باحلام الطفولة. وعندما لاحظت كولبي النظرة الساخرة في عينيه اسرعت تقول:

«آه روشيل... نعم روشيل طبعاً. هل ارى قصة حب عاصفة في الأفق».

انفرجت شفتا دارت عن اسنان ناصعة البياض. لكنه لم ينفوه بحرف واحد.

«فاجأتني يا دارت».

«لماذا يا عزيزتي؟ الرجال يشعرون بالضجر احياناً. ام انك لا تظنين باني صالح لقصص الحب».

عضت كولبي شفتها واشاحت بوجهها عنه.

«ما لك يا كولبي؟ لما الخجل؟»

«لم اخجل. ادهشتني الفكرة فقط».

وضحكت لتخفي انزعاجها حين لاحظت انها ترتجف قليلا. وشغلت نفسها مرة اخرى بوضع مزيج البيض والاعشاب في المقلاة المشبعة بالسمن الساخن.

«ما اطيب هذه الرائحة يا كولبي. انا جائع. لم اتناول اي طعام منذ وقت الغداء».

«لن يكفيك البيض اذاً. سآتيك بشريحة لحم».

واسرعت الى الثلاجة تتفقد محتوياتها. واخرجت قطعة كبيرة من اللحم، اخذت تقطعها شرائح صغيرة. وساد الصمت دقائق قليلة حتى انتهت كولبي من اعداد الطعام وترتيبه على المائدة.

«دارت».

«نعم عزيزتي. هيا افرغي ما في قلبك».

«لا تسخر مني. احاول ان اقول لك شيئاً. ساعدني.»

«لا اريد مساعدتك!»

«انا اتكلم بجدية الآن. اريدك ان تعرف يا دارت اني قادرة على الاعتناء بنفسي لم يكن هناك ضرورة لارسالي الى هنا.تحميلك مسؤوليتي. انا احب كنغارا، انت تعرف ذلك لكني لا اريد مضايقة احد. لا عائلتك ولا...»

وأمسك دارت بمعصمها واخذ يشد عليه بقوة.

«قلت لك يا صغيرتي بانك جئت الى هنا للبقاء.انت سجينتنا الآن».

«ارجوك يا دارت انت توجعني».

«آسف».

ترك معصمها، ولكنه لم يبعد نظراته المتحدية عنها.

«في هذه الحال احذرك يا دارت باني قد اسبب لك بعض المشاكل».

«انا اتوقع ذلك يا عزيزتي. لكني اعتقد ان لدي القوة الكافية لاسيطر على فتاة صغيرة».

«يا إلهي. تجعل الامر يبدو وكأنه جولة ملاكمة يا دارت العزيز».

«ربما يدفعك ذلك الى التصرف بنعومة ورقة».

«اشك بان يحدث هذا. لكني اعرف الآن على الاقل ما علي توقعه».

«اذا كنت تودين الدخول في تحد، قد يفيدك ان تعرفي بأني استطيع تحطيمك بيد واحدة».

«يا لك من رجل جبّار!»

وضحكا. فبينهما عادت تلك المداعبات الطفولية. واحتضن دارت

كولبي بحنان قائلاً:

«لا أريد استرجاع الذكريات الاليمة، لكني سعيد جداً لان والدك فكر بي قبل وفاته، وتركك في عهدتي. كنغارا حزنت جداً لغيابك عنها. واشتقنا نحن لضحكاتك ووجودك».

وابتسمت له كولبي برقة.

«عليك ان تبتسمي غالباً ياصغيرتي. الرجال يفعلون اي شيء لرؤية ابتسامة كهذه».

«بالنسبة الى رجل يعيش في عالم للرجال فقط انت خبير فعلاً في اطراء النساء».

ونهضت كولبي من مقعدها لتنظف المائدة من الصحون المستعملة وفناجين القهوة بعدما انتهيا من تناول العشاء. ترنحت فجأة وكادت تقع لولا ان امسك بها دارت في اللحظة الأخيرة.

«انت مرهقة يا صغيرتي. عودي الى فراشك. ستنامين كطفلة هذه الليلة».

«تصبح على خير يا دارت. وشكراً لانك احتضنتني في كنغارا».

«انت بحاجة لمن يرعاك في هذه الفترة. هيّا اذهبي الى فراشك. تصبحين على خير».

وقبل ان تغلق كولبي باب غرفة الطعام وراءها سمعت دارت يتمتم:

«اهلاً بعودتك يا كولبي العزيزة».

وكافأته بابتسامة رائعة. لم ير دارت بمثل رقتها من قبل.

«شكراً دارت».

وقبل ان تستسلم كولبي للنوم، احسّت للمرة الأولى، منذ انتزعها والدها من احضان كنغارا، بالراحة والاستقرار والأمان. فاستغرقت في نوم عميق بدون احلام.

٣ ـ ابنة الشمس

كان الصباح جميلا ومنعشاً، والسراب يبدو بعيداً في الافق. افاقت كولبي عند اول بصيص ضوء. مدّت يدها، وادارت الساعة نحوها. كان الوقت قرب الخامسة صباحاً. ازاحت الستارة الرقيقة المحيطة بسريرها ونهضت وهي تشعر بحيوية فائقة كان من المستحيل معها البقاء في الفراش.

وضعت ردائها الحريري الاخضر، وتوجهت الى النافذة لتبعد عنها الشبكة الواقية من البعوض، وتمدّ نظرها الى المساحات الشاسعة في الخارج. كان العالم يستحم بضوء ذهبي ناعم، ترطبه نسمات منعشة. كم هو رائع هذا الهواء النقيّ. تنشقته بعمق مالئة رئتيها باريجه القوي.

واطلّ الصباح بكل اشراقته، وطّعمت الشمس الزهور بالذهب، ملقية ظلالا وردية على تلال الرمل المتثائبة.

صقور النهر اخذت تحلّق فوق الوادي فاردة اجنحتها لتلمع معدناً فضياً في ضوء الصباح الباكر. والى الشرق كانت زرقة سلسلة الجبال تمتد طوال الافق غارقة في السراب، حتى بدت كلوحة رسمتها مخيلة فنان، فاضفت عليها جمالا ابعد من الحقيقة.

اما جو الصحراء فلم يكن يماثله اي جو آخر. الاشياء كلها تنتصب بوضوح خيالي، وقطعان الماشية تبدو على مرمى حجر بينما هي في الواقع على بعد عشرين ميلاً.

وبينما كانت كولبي تتأمل روعة الطبيعة الممتدة امامها ارتفعت الشمس

اكثر في الجهة الشرقية من السماء، ترافقها ريح رقيقة تصفر بعذوبة بين الاعشاب المعطرة، ناثرة حولها البراعم الذهبية.

لم تشأ كولبي ان تضيع لحظة واحدة من مهرجان الطبيعة التي استيقظت فرحاً بالضوء، فارتدت سروالا من الجلد، وقميصاً حريرياً اصفر اللون، وما هي الا خمس دقائق حتى كانت في طريقها الى النهر الذي شهد العديد من مغامرات طفولتها.

اسرعت كولبي الخطى وهي تشعر بنفسها خفيفة لدرجة احست معها انها فراشة تطير سعيدة بحريتها. واخذت تدندن اغنية من اغاني السكان الاصليين تعلمتها في طفولتها في ذلك الوقت من الصباح كان الهواء لذيذاً منعشاً لكن لن يلبث ان يتفجر حيوية عند الظهيرة، ويمارس خدعاً بصرية على الانسان المسكين الذي يخضع لاغرائه.

ولم يمض وقت طويل حتى قطعت كولبي المسافة الى النهر المتعرّج بين تظاهرة الزهور الملونة واشجار الصمغ المحلية. وفجأة سقط امامها طير مالك الحزين، وكأنه يستنجد بها من النسر الذي يطارده بوحشية. فصفقت بيديها عالياً، لتخيف الطائر الكاسر الذي ابتعد عن فريسته مسرعاً.

كان العالم الاخضر حولها يضجّ بالحياة، فتوقفت لحظة لتتأمل الطيور وهي تحلّق ضاحكة فوق المستنقع القريب، قبل ان تستحم في المياه الضحلة التي انعكست عليها الشمس انواراً متلألئة.

وكانت شفافية محببة من الضياء، تتسرّب من خلال ستار النباتات الاخضر، لتعانق الارض المعطرة بالمسك. واحتضنت الطبيعة كولبي، وانسابت الظلال الذهبية الى قلبها تدفئه من آخر قشعريرة تركتها سنوات الغربة في نفسها. وغنت الطيور فرحاً بعودتها وصارت تثرثر بلا تعب او كلل، بينما تابع النهر ترنيمه فوق الحصى التي شاركته غناءه سعيدة بيقظة الحياة.

وللمرة الاولى منذ وفاة والدها، وضعت كولبي رأسها بين يديها وبكت. الدموع المنهمرة فوق وجنتيها تساقطت بهدوء لتغسل بقايا الحزن القابعة في

اعماقها. واحتوتها الارض النائية لتغلفها بسحرها البدائي وتمسح دموعها. واحست كولبي اخيراً بالراحة والسلام. كانت الدموع ضرورية.

وفجأة، وبدون سبب معين، شعرت بان احداً ما يراقبها. انزلت يديها عن وجهها، ومسحت دموعها بسرعة. ومرّت دقائق وهي لا تزال في مكانها، واحساسها يقوى بوجود شخص آخر. واصغت جيداً للاصوات حولها، منتظرة سماع نبرة غريبة. ولمحت النباتات على حافة النهر تتحرك. وتناهى إليها لحن قديم بعصر الأحلام. رفعت كولبي رأسها ببطء. على جذع شجرة كبيرة قرب احد تعرجات النهر، جلس صبي صغير يلعب على آلة موسيقية بدائية. انه رمز رائع لا يتخطاه الزمن.

وتصاعدت الاغنية لحناً شجياً بدون كلمات. فرافقتها كولبي بصوت خفيض بدأ يعلو تدريجياً ليصدح باغنية وطنية كانت غالباً ما ترددها وهي طفلة.

وعلى مهل اقترب الصغير منها، ووقف الى جانبها بدون ان يتوقف عن العزف. والتفتت اليه. كان في السابعة من عمره تقريباً. خصلات شعره الاسود تلتف حلقات غزيرة على رأسه وتنحدر بفوضوية على جبينه. عيناه الداكنتان الواسعتان تذوبان رقة ككل ابناء جنسه. وكان صدره العاري يلمع ببريق نحاسي، فوق سروال كاكي اللون، من النوع الذي يرتديه عمال المزرعة. وتوقفت الموسيقى فرحبت كولبي بالعازف الصغير:

«اهلاً بك يا استراليا الصغيرة».

ولم يفهم الطفل قصدها، فتابعت ضاحكة:

«هل انت أت من المزرعة؟»

اجابتها عيناه المعبرتان حتى قبل ان يتفوّه بكلمة واحدة:

«نعم يا آنسة. انا الساعد الايمن للسيد الكبير».

«حقاً؟»

سألت كولبي باهتمام، فلم يبد عليه اي انزعاج من نبرتها المداعبة.

«نعم. اسمي بوكا وانا ساعد السيد دارت الايمن».

وابتسمت كولبي لهذا الكائن الصغير، الذي تحمل طفولته النحاسية كل قدم القارة الاسترالية. ولمعت عيناها الخضراوان فرحاً باللقاء.

«كم عمرك يا بوكا. سبعة... ثمانية اعوام؟»

«اكثر من ذلك يا آنسة».

وفتح ذراعين واسعتين ليدل بحركة طفولية عن حقيقة عمره. وعندما اطمأن اخيراً الى كولبي قربها على الصخرة فابتعدت لتفسح له مجالاً أكبر.

«المكان رائع هنا. اليس كذلك يا بوكا؟»

هزّ رأسه ايجاباً. وتسلل شعاع شمس بينهما، وركض الى النهر ليحوله الى شريط متعرج من الذهب. فوقهما كانت الطيور تثرثر بصوت عال، وكأن لديها الكثير من الاخبار تود ان ترويها قبل حلول الظلام.

«بوكا. هل تعرف ما هو اسم تلك الاسماك؟»

ودلّت على الاسماك الصغيرة الشفافة اللون التي كانت تسبح بين حصى النهر.

«هس! لا تتكلّمي!»

رفع يده محذراً.

«سأنادي احداها لتصعد الى السطح».

وانحنى على النهر، فتقلصت عضلاته تحت بشرته الحريرية. وبطرف اصبعه الصغير صار يرسم دوائر تصغر حلقتها تدريجاً. وفجأة صعدت سمكة الى السطح بحركة صغيرة سريعة، وكأنها متلهفة لمعرفة ما يريده الصبي الصغير منها.

«هذا رائع يا بوكا. كيف فعلت ذلك؟»

ورفعت قبعتها لتنظر اليه ملياً. والتفت بوكا ليبتسم لها، فاتسعت عيناه فجأة وكأنه رأى شيئاً مخيفاً. ووقف في مكانه جامداً للحظات، قبل ان يفرّ هارباً.

المفاجأة سمرت كولبي في مكانها، فلم تنطق بكلمة واحدة لتوقف بوكا الذي كان يصرخ «انها لعنة الشمس». لم تعرف ما اخافه لهذه الدرجة، ولم تجد اي تفسير معقول لتصرفه فللمواطنين الأصليين الكثير من التقاليد الغريبة، وهم يؤمنون بأن الطبيعة تلعن من يجرؤ على تحديها. وشعرت كولبي بالاعشاب

ترتجف قرب قدميها. فاخفضت بصرها لترى سلحفاة كبيرة تنتزه في اتجاه ضفة النهر وظهرها يلمع بالف لون ولون. واحتوت الطبيعة كولبي مجدداً في احضانها، فنسيت بوكا وقصتها معه.

كانت الساعة تجاوزت السابعة عندما شرعت كولبي بالعودة الى المنزل. وعلى بعد امتار من البيت الكبير رأت فارساً مقبلاً نحوها. كان دارت.

حتى وهو منتصب على صهوة جواده، كانت تنبع منه قوة قيادية، يشعر بها العامل معه عن بعد ويطيعها.

وقفت كولبي في مكانها تتأمل الفارس والحيوان. الجواد يبدو رائعاً، اسود اللون، حريري البريق، ذيله ورأسه يلمعان بلون الفضة. اما الرقبة فطويلة ومعتدة، والقوائم رقيقة وقوية، والكتفان صلبتان. كل ما فيه يمّ عن اصالة مميزة.

توقف دارت قربها، وبدون ان يتفوه بكلمة انحنى برشاقة ليلتقطها بين ذراعيه ويضعها على الجواد امامه. وهمس لها ضاحكاً:

«عدت الى الاعيبك القديمة. اليس كذلك يا ابنة العم؟»

«اتعني تسللي المبكر خارج المنزل؟»

«نعم. كنت ابحث عنك. لاحظت انك تركت نافذتك مفتوحة. الا تستعملين الدرج ابداً؟ سيكون لي حديث قصير معك يا عزيزتي، بعد الافطار. على ان آخذ من بعض اساليب لهوك يا صغيرتي».

«لا يا عزيزي. ليس الآن. كنت بدأت استمتع بوقتي».

ضحك ولم يعلّق شيئاً. اخذ يربت على ظهر الجواد ليشجعه على صعود التلة الصغيرة.

«كم هو جميل هذا الجواد يا دارت».

واخذت تربت على رقبته البراقة.

«طبعاً هو رائع. هذا جواد اصيل، ومن سلالة اصيلة».

«اعرف انك كنت دائماً تحب كل ما له شخصية مميزة ومستقلة بصعب السيطرة

عليها».

وصهل الجواد معتداً بنفسه، وكأنه يتابع الحديث الدائر بينهما. وضحك دارت مبعثراً بانفاسه خصلة رقيقة من شعرها تطايرت قرب انفه.

«ولذا احب ابنة عمي الصغيرة كولبي».

ورفعت كولبي رأسها لتتأمل وجهه الأسمر الجذاب. قبعته العريضة كانت تضفي ظلالاً داكنة على عينيه الواسعتين، وتبرز شبح ابتسامة اخذت تتلاعب على زاوية فمه المرسوم بدقة.

«انت وسيم جداً يا دارت».

قالتها ببراءة يناقضها بريق الشقاوة في عينيها. واتسعت ابتسامته.

«لا تظني بانك تستطيعين التوصل الى مبتغاك عن طريق المدح».

«كنت اعرف اني لا بدّ وان اجد الطريقة المثلى للتعامل معك».

وكادت تسمع الابتسامة في صوته عندما علّق قائلاً:

«كنت اعتقد ان العكس هو الصحيح».

وشد اللجام بين يديه، فاسرع الجواد يشقّ طريقه بثقة بين تلال الرمل.

«لا بد ان روشيل تراك شديد الجاذبية».

«نعم. لكن هذا الأمر لا يعني الفتيات الصغيرات».

«حسناً، لن اتكلم في هذا الموضوع بعد الآن».

وعادت لتغرق في جمال الصباح، وجسمها يتأرجح مع اختلاجات الجواد الذي كان يسابق الريح. وانتهى الحلم بوصولها الى البيت الكبير. ربط دارت الحصان في الاسطبل، والتفت ليساعد كولبي على النزول.

«اما انك ازددت وزناً، أو اني اصبحت أكثر ضعفاً».

وتألقت عينا كولبي تأثراً.

«حقاً كانت نزهة ممتعة».

نظر اليها دارت بحنان.

«لم تتغيّري ابداً يا ابنة عمي العزيزة. ما زلت كما الامس».

«بانفعالاتي ربما. لكني لم اعد طفلة يا دارت. أصبحت شابة ناضجة».

«لا يزال امامك بعد طريق طويل للنضج».

وانزعجت كولبي من الكلمات، لكنها تذكرت فجأة بوكا وتصرفه الغريب. كان دارت قد انصرف عنها ليتحدث الى احد عمال المزرعة. فانتظرت بصبر عودته اليها. وبعد دقائق عاد ليصطحبها الى المنزل.

« دارت. التقيت اليوم قرب النهر اغرب طفل رأيته في حياتي. قال انه ساعدك الأيمن».

«لا بد انك تعنين بوكا. شخصية مميزة فعلاً. انه حفيد بن».

«خاف مني. لا تسلني لماذا. كنا نتحدث بهدوء. وفجأة فر هارباً كأنه رأى أمراً مرعباً».

«غريب. ماذا قلت له. هذه القصة تناقض طبيعة بوكا».

«لم أقل له شيئاً. كنا نتفرّج على سمكة صغيرة. التفت ليبتسم لي. وفجأة صرخ بخوف، وفرّ وهو يردد «لعنة الشمس».

تأمّلها دارت للحظات، قبل ان يرفع نبعتها عن رأسها ليراقب بريق الشمس على خصلاتها النارية.

«اعتقد اني وجدت مفتاح اللغز».

أمسك بيدها، وقادها الى داخل المنزل. توقف برهة في الردهة، واكمل طريقه الى غرفة الجلوس، والى المرآة الكبيرة في الصدر، حيث ألقت الشمس بكل ثقلها على الاطار الذهبي.

«تعالي كولبي. انظري الى نفسك في المرآة».

واقتربت كولبي من المرآة لتحدّق في صورتها المنعكسة فيها.

«ما الأمر يا دارت. لا ارى شيئاً يلفت النظر».

« بوكا رآه. وانا لا ألومه. لون شعرك يلفت النظر في اي مكان. اما الصغير بوكا فاعتبره نوعاً من السحر خاصاً بالنساء».

مررت كولبي اصابعها في خصلاتها القصيرة.

«لم اكن لأعرف وحدي ابداً».

«كيف تفسرين اذاً مناداتي لك بعصفور الجنة».

«لأني غريبة الأطوار احياناً. وما من احد يستطيع ان يتوقع ما سأفعله بعد دقيقة».

«هذا مزيج رائع يا صغيرتي».

ويبدو ان مزاج دارت كان يميل الى المزاح في تلك اللحظة. لكن كولبي لم تكن بالهدوء الكافي لتدخل معه في معركة.

«شكراً لاطرائك يا دارت. هذا اذا كان ما قلته اطراء».

«دلنكف عن هذا العبث الآن. هيا اذهبي الآن لتناول طعام الفطور. وأعد بأني سأجد لك فرساً ممتازة لنزهاتك اليومية».

«على ان تكون مميّزة الشخصية يا دارت. لا تنسى اني فارسة ممتازة».

«وكيف أنسى يا صغيرتي. صرفت ساعات طويلة لتلقينك اصول الفروسية».

«أعلم. لذا يمكنك الوثوق بأني استطيع السيطرة على الجوهرة السوداء».

وضاقت نظرته منذرة بالغضب.

«الجوهرة السوداء! لا تقتربي منها يا كولبي. الفرس هذه نارية الطباع. رأيتها في لحظات غضبها تلقي عن ظهرها بستة رجال. فتاة صغيرة مثلك لن تستطيع السيطرة عليها. امنعك منعاً باتاً من الاقتراب منها».

«ولكن يا دارت...»

«كفى كولبي. لا اريد سماع كلمة اخرى في هذا الموضوع. لا اريد حادثة اخرى في هذه المزرعة. ابتعدي عنها. هل سمعت؟»

«نعم. حسناً دارت. اهدأ قليلاً. لا حاجة بك الى التهديد. رغباتك أوامر. الأمر في غاية البساطة. سأتقبل هزائمي على يديك بنظرة فلسفية».

«آه لو كان ما تقولين صحيحاً!»

ولم تجبه كولبي، بل تركته لتذهب الى غرفة الطعام. كان ستيفن وسوزان قد شرعا في تناول طعام الفطور.

«صباح الخير يا ذات العينين الخضراوين».

بادرها ستيفن!

«صباح الخير ستيفن. صباح الخير سوزان».

وابتسمت كولبي لسوزان وهي تضع بعض البيض في صحنها. فأجابتها هذه الأخيرة وهي تحاول ان تبدو أكثر رقة:

«استيقظت باكراً هذا الصباح يا كولبي».

«يبدو ان الجميع لاحظوا ذلك. دارت ألقى عليّ محاضرته الصباحية منذ برهة.»

ودخل دارت الغرفة، وسمع ملاحظتها الأخيرة فعلّق ضاحكاً:

«لم ابدأ بعد يا كولبي».

وتجاهلته كولبي متوجهة الى الاثنين الآخرين».

«هل هو هكذا دائم العنجهية واللامبالاة، السيد المستبد الذي يفرض سيطرته على الجميع؟»

وضحك دارت، بدون ان يظهر عليه اي انزعاج من وصفها القاسي له. واسترقت النظر الى وجهه فرأته هادئاً مع لمسة ساخرة تعرفها جيداً.

«الحمد لله اني انتهيت تقريباً من تناول افطاري».

قالتها لتخفي اضطرابها العابر. فعيناه كانتا تخترقانها حتى الاعماق.

«هل تريد فنجاناً من القهوة؟»

اومأ دارت موافقاً والتفت الى ستيفن الذي كان يراقبهما باستغراب. فان احداً لم يكن يجرؤ على التحدث الى دارت بنبرة الصوت التي خاطبته بها كولبي.

«ستيفن. الطبيب البيطري سيأتي الى المزرعة بعد ظهر اليوم. العجول بحاجة الى تلقيح. اريدك ان تساعد ماغاني. علينا ان نجمع حوال ثمانمئة رأس في مكان واحد. اهتم بهذا الامر كشاب طيب».

«اعتبر أن الأمر نفذ ما دمت لا تطلب إلي دمغها بالنار. أكره رؤيتها مستلقية أرضاً تستقبل الحديد الحار بدون تذمر. لا أستطيع تحمل ذلك».

«سأجعل منك، في يوم من الايام، راعي بقر قديراً. وانصرف دارت لتناول القهوة التي قدمتها له كولبي، وهي تسأل:

«هل استطيع مرافقتكما؟»

قطب دارت حاجبيه قبل ان يقول:

«سيغطيك الغبار! سوزان مثلاً لا تحب ذلك».

«انا لا يخيفني الغبار. سأغطي شعري بمنديل».

«لا اعرف. سأفكر في الأمر».

«العمل هو للرجال فقط. اما النساء فعليهن البقاء في المنزل. اليس كذلك يا دارت؟»

«شيء من هذا القبيل، يا كولبي العزيزة».

انتهى من تناول القهوة، وغادر الغرفة فلحقت به كولبي وقالت باصرار:

«ما هو القرار يا حضرة الرئيس؟»

نظرته جعلتها تشعر بالتردد.

«انت مصرّة على المجيء، معنا اليس كذلك؟ هذا عمل صعب حتى للمتفرجين. انه عالم للرجال فقط يا كولبي الصغيرة».

«لماذا لا تتابع قائلاً: والحمد لله!»

كانت تعرف بفطرتها الانثوية كيف تصل الى مبتغاها بطرق ملتوية.

«حسناً هذا عالم للرجال فقط والحمد لله».

«اذاً لا يسمح للنساء بدخوله».

ونظرت مباشرة الى عينيه الرماديتين المليئتين رجولة. وبدا عليه التردد.

«نعم غير مسموح. لكني قد استثني فتاة صغيرة اعرفها لو وعدتني بالا تزعجني، وتتدخل في اعمالي. فتكتفي بالمراقبة عن بعد».

وشكرته بابتسامة بريئة فيها شيء من الانتصار.

«شكراً دارت. اعدك بالبقاء هادئة».

«حسناً. نفّذي وعدك وإلاّ...»

ربما كان تأثير الظلال، لكن كولبي رأت على وجهه انطباعاً قاسياً.

«اعرف انك تعني ذلك يا دارت».

وشعرت فجأة بانه يفوقها طولا وقوة. وامسك معصمها بقسوة.

«اردت ان احذّرك من ثيابي عن ذات العينين الخضراوين».

وحررت كولبي نفسها من قبضته.

«هذا عدل يا دارت».

وقاطعهما صوت ستيفن الذي لحق بهما الى الشرفة.

«هل رأت كولبي فرسها؟»

«لا، لم ترها بعد. تعالي معي الى الاسطبل يا كولبي».

ولحقت به كولبي متلهفة ووراءها ستيفن.

«ستعجبك يا كولبي، انها فرس رائعة».

«كفى يا ستيفن، افسدت المفاجأة، دع كولبي تراها اولاً».

وفي الطريق التقوا بوكا. فاستوقفه دارت قائلاً:

«تعال هنا يا بوكا. اريد التحدث اليك».

والتفت دارت الى كولبي ومرر اصابعه في خصلاتها الحمراء.

«هذه ابنة عمي يا بوكا. الفتاة التي اخبرتك عنها. اريدك ان تبقى ساهراً على سلامتها يا مساعدي المفضل».

وسجن دارت بين اصابعه خصلة من شعر كولبي، التي جمدت مكانها بدون حراك، وتابع قائلاً:

«والدتها سرحت شعرها بشعاع شمس. هل تفهم الآن؟»

«نعم. سحر النساء. اليس كذلك؟»

«شيء من هذا القبيل. اذهب الآن».

وابتعد بوكا مسرعاً تلاحقه ابتسامة دارت.

«حسناً فلنتابع طريقنا الآن الى الاسطبل».

ومشوا بصمت حتى وصلوا الى هدفهم.

«انتظري هنا يا كولبي».

أمر دارت، واختفى داخل الاسطبل، ليخرج منه بعد قليل بفرس رائعة. لم تصدق كولبي بصرها. فالفرس البنية اللون امامها كانت جميلة فعلاً بعينيها المشتعلتين شرراً، وقوائمها الرقيقة العصبية التي بدت لخفتها كأنها لا تطأ الأرض.

«قولوا لي اني لا أحلم! هل حقاً ستعطيني هذه الفرس يا دارت؟»

انحنى دارت برشاقة وهو يقول:

«انها لك وحدك يا كولبي. مفاجآت كهذه تجعل الحياة مثيرة».

وابتسمت له بحرارة. كانت سعادتها واضحة.

«شكراً لك يا دارت. كم انت طيب. اعتقد باننا سنصبح صديقين».

«يا له من اقتراح مفاجيء».

«اعني ما أقول».

ووقفا على جانبي الفرس يربتان على ظهرها.

«ما اسمها يا دارت؟»

«سورشا ابنة الشمس».

وراقبت كولبي انعكاس الشمس على الجسم الطري، الذي تحول لونه البني الى شعلة ذهبية، وهزت رأسها سروراً.

«ما من حاجة لأن اسألك اذا كانت الفرس اعجبتك!»

قال ستيفن وهو يستمتع بمراقبة الفرس والفتاة. كانتا تليقان ببعضهما. كلاهما تنحدر من سلالة أصيلة، وكلاهما تعتد بنفسها.

وشعرت كولبي بنظرة دارت ترتاح عليها فالتفتت اليه قائلة، بابتسامة طفولية رقيقة:

«شكراً يا دارت. سأعاملها كأميرة».

«اعرف يا صغيرتي، ولذا اعطيتك اياها. اذهبي الآن الى بيللا. انها تحتاج الى

المساعدة هذه الايام».

كان واضحاً انه يريد صرفها، فابتعدت مبتسمة وهي تلوّح له بيدها. وكان آخر ما رأته صورة دارت وستيفن يتوجهان معاً الى مقر رعاة بقر المزرعة.

ومرّ ما تبقّى من الصباح بسرعة. امضت كولبي ساعة في فكّ وترتيب حقائبها، ثم نزلت الى الحديقة لتساعد بيللا وسوزان في زرع ازهار جديدة. صحيح ان بيللا كانت تستعين بعدد من العمال الوطنيين للاعتناء بالحدائق الشاسعة الا انها كانت تصرّ على القيام وحدها بزرع النباتات الطرية، والاشراف على الاعمال الاخرى.

وهذا الصباح كانت بيللا منهمكة في زرع نوع جديد من البنفسج المداريّ وجدته قرب سفح احدى تلال الرمل على بعد عدة اميال من المزرعة.

حرارة الشمس، وعطر الهواء جعلا سوزان تبدو اكثر وداً، فمضى الوقت سريعاً، بينما كانت بيللا تعطي تعليماتها للفتاتين عن اصول العمل، وكيفية غرس البذور.

وبعد الغذاء، ارتدت كولبي سروالا مريحاً وقميصاً احمر اللون، وجلست تنتظر ان يناديها دارت. ولم تنسى اخراج منديلها الحريري الابيض والاصفر. ففي هذه المنطقة يعلق الغبار الاحمر حتى بالمساحات المصقولة الملساء.

كانت الساعة تجاوزت الثانية عندما وصل الطبيب البيطري اخيراً الى المزرعة. قيل لها انه سيمضي الليل في كتغارا. وهامت كولبي في ارجاء المنزل بدون هدف معيّن. كانت تخشى ان يعود دارت عن رأيه ويذهب بدونها.

سمعت صوته في الحديقة، فوقفت قرب النافذة لتراقبه عن بعد. كان يتحدث الى الطبيب البيطري، ورجل آخر لم تره من قبل. وحاولت كولبي ان تنظر الى ملامح دارت بموضوعيه لكن الأمر كان مستحيلاً. فهو مقرّب جداً الى قلبها، ويستأثر بجزء مهم من عواطفها. واحسّت تجاهه بمزيج متناقض من المشاعر لم تستطع ان تتبيّن معناها بعد.

وابتسمت كولبي لنفسها. لم يكن دارت يتصرّف فعلاً كرعاة البقر او

كأصحاب المواشي. قامته الرشيقة، واناقته المميّزة، وحركاته العفوية، كانت كلها تشير الى رجل ينحدر من عائلة ارستقراطية عريقة.

وفجأة التفت دارت متوجهاً الى المنزل وهو ينادي باسمها. فطارت كولبي الى الشرفة، وكادت تقع على الدرج وهي تسرع الى حيث كان ينتظرها.

نظر اليها دارت بمزيج من الحنان والمداعبة وقال:

«كنت اعلم انك ستلبين النداء بسرعة، لكني لم اتوقع انقضاضك عليّ كالسهم».

«هل فعلاً جئت بهذه السرعة؟»

سؤالها كان فيه شيء من التحدي. وامام بريق عينيها، والحمرة الخفيفة التي لوّنت خديها، قرر دارت الاستسلام حتى قبل دخول المعركة.

«تعرفين فرانك كيندي اليس كذلك يا كولبي؟»

ابتسمت كولبي وهي تمد يدها مرحبة بالطبيب. لم تنسه. كان غالباً ما يزور المزرعة في الايام الغابرة. وبادلها الطبيب ابتسامتها.

«انا سعيد جداً بعودتك الينا، يا آنسة الييني، يا آنسة كولبي. واسمحي لي بان اقول لك ان الايام حولتك الى شابة جميلة فعلاً».

«اسمح لك بقول ذلك يا دكتور فرانك».

«كف عن اطرائها يا فرانك. ستدير رأسها، وستصاب بالغرور ولن نتمكن من السيطرة عليها بعد ذلك».

والتفت دارت الى الرجل الآخر قائلاً:

«كولبي، اعرفك بمايك فراداي هذا رجل لكلّ المهام ولكلّ الفصول».

اطالت كولبي النظر الى الرجل الواقف امامها، فرأته طويل القامة، متناسق التقاطيع، فاتح الشعر، يقارب عمره سن دارت اي انه يبدو في اوائل الثلاثينات. واستراحت عيناه البنيتان على كولبي بتعبير فيه الكثير من الاهتمام.

«انا سعيد بمعرفتك يا آنسة كينغ. دارت كلمني كثيراً عنك».

وكان لصوته رنة خفيفة وعذبة. والتفتت كولبي الى دارت فوجدته ابتعد عنها ليفتح باب السيارة الكبيرة المتوقفة على بعد امتار قليلة.

«هيّا يا كولبي، اصعدي. حان وقت الذهاب».

جلس الرجال في المقعد الخلفي، واستراحت كولبي قرب دارت الذي انطلق بالسيارة مسرعاً صوب حظائر الماشية. وعند وصولهم كان رعاة البقر يأتون بالقطعان الى الاماكن المسيّجة التي انشئت خصيصاً لجمعها. وكان العمال قد امضوا يومين كاملين يجوبون اراضي كينغ الشاسعة بحثاً عن القطعان، لفصل الحيوانات المحتاجة الى تطعيم ودمغ. كان هناك حوال ثلاثة آلاف رأس من الماشية مجتمعة في الحظيرة المؤقتة تتراوح اعمارها بين يوم وشهر واحد، وكلّها برفقة امهاتها.

وغطّت هالة من الغبار الاحمر المكان. الرجال كانوا يرتدون ثياب رعاة البقر التقليدية، وهي تشابه كثيراً ازياء رعاة بقر ولاية تكساس الاميركية: قبعة عريضة تقي عيونهم من حدة الشمس، وسروال جلدي ضيق، ومنديل حول العنق، وجزمة عالية من جلد العجل، وقميص مزين بمربعات فاتحة اللون، وحزام عريض من الجلد. وفي المناسبات الخاصة كان الرجال يستبدلون القميص فقط بآخر من الحرير المطرّز برسوم زاهية.

في الغرب كان الرجال يبدون اكثر طولاً، ورشاقة، واعرض اكتافاً من زملائهم في المدن، وكذلك تبدو وجوههم اكثر رجولة وقوة.

ورأت كولبي حوال اربعة عشر رجلاً من رعاة البقر يتحلقون حول الحظائر، للسيطرة على المواشي التي بدأت تظهر عصبيتها.

أوقف دارت السيارة. فخرج منها اولاً مايك والطبيب، واتجها الى الحظيرة الأولى. ربطت كولبي المنديل حول رأسها وهمت باللحاق بهما، فاوقفها دارت.

«مهلاً يا ذات الخصلات النارية. حقاً انت انثى عنيدة. قلت لك اني اسمح لك بمشاهدة ما يحدث عن بعد».

«اين تريدني ان اقف بالتحديد».

ورسم دارت بيده خطاً وهمياً.

«قرب السيارة. لا تقتربي اكثر من ذلك. بعض الثيران في القطيع قد تكون خطرة. هل من اسئلة اخرى؟»

«لا يا دارت».

«حسناً».

وابتعد عنها ليتحدّث الى الرجال، فاختارت كولبي مكاناً ظليلاً تقف تحته. الحر اشتدت وطأته. خلعت قبعتها ووضعت نظارتين داكنتين على عينيها. الشمس بدت اكثر احتراقاً في السماء الصافية، والتلال انتصبت بقساوة اكثر طوال خط الافق. اما الغبار فتراكم كثيفاً على كل الوجوه.

على بعد امتار قليلة منها، رأت كولبي ستيفن بقميصه الازرق الفاتح، يتحدث الى احد الشبان الاصليين. عرفته برغم المنديل الذي غطى نصف وجهه لحماية رئتيه من تنشق الغبار الخانق.

وبدأ عمال المزرعة بطرح العجول ارضاً لدمغها بحرف «ك». وسكنت فجأة همهمة القطيع، وكأنه شعر بتهديد الحديد الساخن الذي سينهال بعد لحظات على جلده. وكانت كولبي تشارك ستيفن نفوره من هذا الاجراء الضروري لحصر رؤوس الماشية الخاصة بمقاطعة كينغ. فابعدت نظرها عن القضبان المشتعلة التي تضع دوائر صغيرة على العجول الخائفة، لتراقب الطبيب المنهمك في تطعيم الحيوانات الاخرى التي عرفت طعم النار قبل سنوات، وراحت تنظر بحنان الى صغارها.

بعد ساعة من العمل الشاق، التف الرجال على نداء طباخ المزرعة، وهو صيني من مقاطعة كانتون. كان طاهياً ماهراً، والمسؤول عن تأمين المؤونة الغذائية للبيت الكبير ومقرّ العمال.

جلس على جذع شجرة كبيرة، وعلى وجهه المرح الصغير ابتسامة مميزة لا يراها المرء الا على وجوه الشرقيين. وتذكرت كولبي كم كانت تستمتع برفقته المسلية

وهي طفلة. كان صديقاً لكل اطفال المزرعة. ومشت كولبي اليه وهي تحاول ان تتجنب غيوم الغبار المتراكم في الجو.

«مرحباً يا لي كم أنا سعيدة برؤيتك مجدداً».

«وأنا كذلك يا آنستي».

وقفز من مكانه ليُنحني لها باحترام. صوته ما زالت فيه تلك الرنة الغنائية القديمة. واشارت كولبي باصبعها الى قالب كبير من الحلوى.

«ما اشهى مظهره».

ولم تكد تنهي كلماتها حتى امسك الصيني بسكينة ليقطع لها جزءاً كبيراً منه.

«هذه القطعة لك وحدك يا آنستي. هؤلاء الرجال لا يشعرون بالسعادة الا اذا اطعمتهم حتى هناء».

واشار بيده الى نقطة وهمية فوق رأسه.

«انتظري يا آنستي. سأهب لك فنجاناً من الشاي. كنت اعرف انك ستأتين اليوم ولذا احضرت لك كوباً جميلاً من الزجاج الصيني».

«شكراً لالتفاتتك الطيبة».

وانحنى لها مجدداً، فبادلته كولبي الانحناء مبتسمة، وعادت الى مكانها الظليل. الرجال ما زالوا يتوافدون الى عربة الطباخ. فتوقعت ان يلحق بهم دارت ليستريح برهة، الا انه تابع عمله الى جانب الطبيب.

وتناولت كولبي كوب الشاي ببطء، وعندما فرغت منه، وقفت لتعيده الى الطباخ. رفع العمال قبعاتهم تحية لها عندما مرّت مبتسمة قريباً منهم. كان من النادر وجود امرأة في مكان كهذا. وحررت كولبي خصلات شعرها من المنديل. كان الجوّ شديد الحرارة.

ولم يتوقع احد ما حدث بعد ذلك. ماغاني، وتد ايفانز، كانا يحاولان السيطرة على ثور كبير لكنه تمكّن من الفرار من قبضتهما، وفي عينيه الصغيرتين تهديد بالانتقام من معاملة الانسان. واتجه الثور الغاضب نحو الفتاة، التي بدأ شعرها المكشوف وكأنه شعلة من النار. الرجال كلهم تحرّكوا في الوقت ذاته،

فسقطت أكواب الشاي، وتبعثرت قطع الحلوى، وامتدت الأيدي الى الأسواط في محاولة يائسة لتجنب الكارثة.

جمدت كولبي مكانها والخوف يشلّها، ورفضت ساقاها التحرّك، وكان دارت أول من تمكن من الوصول اليها بسرعة. حماها بجسمه ودفعها بعيداً عن طريق الحيوان الهائج. فتعثرت، وسقطت، وجرحت ركبتيها.

اندفع الثور نحوها والشرر يتطاير من عينيه. واحسّت كولبي بالرعب يعصر معدتها. اصبح دارت في خطر حقيقي. وجهه القوي بدا صلباً كالصخر، وتقلّصت عضلات جسمه استعداداً للمعركة. الرجال كلهم جمدوا في مكانهم، وبدا وكأن احداً منهم لا يجرؤ حتى على التنفس. فالثور كان قريباً لدرجة لا يمكن معها تجنب الهجوم. ولذا كان لا بد من المجابهة. ثبّت دارت قدميه في الأرض وبيديه القويتين أمسك بذيل الحيوان فور اقترابه منه. وقبل ان يستعد الثور لمجابهة التحدّي، كان دارت قد تمكّن من اخلال توازنه، فسقط ارضاً وفي أنفاسه المتلاحقة مزيج من الغضب والخوف. وأسرع الرجال من كل صوب للسيطرة عليه، وربط قوائمه الأربع.

نظرت كولبي الى دارت، فرأت قميصه الممزّق ملطخاً بالدماء عند الكتف. استطاع الثور ان يطعنه اذاً قبل ان يسقط ارضاً. واغلقت كولبي عينيها بسرعة وهي تشعر بالغثيان. ترنّحت وكادت تسقط لولا ان اسرع مايك فارادايّ الى جانبها ليساعدها على الوقوف.

«هل انت بخير يا كولبي؟»

نسي ان يدعوها بالآنسة كينغ. الألقاب في تلك اللحظة لم يكن لها اي معنى. ولاحظت كولبي رغم توترها اختفاء طابع اللامبالاة عن وجهه اذ دل شحوبه الواضح على الخوف الذي عرفه الجميع قبل دقائق.

«كانت دقائق مرعبة فعلاً يا كولبي. شكراً لله ان دارت من امهر رعاة البقر. ما قام به يتطلب جرأة فائقة».

وسمعت كولبي الكلمات بدون ان تفهم معناها. ففي ذهنها لم تكن تر إلاّ

قميص دارت الملطخ بالدماء. ذهبت إليه، وهي تحاول السيطرة على الدموع التي بدأت تحرق عينيها. كان الطبيب يكشف على الجرح:

«عليّ بتنظيف الجرح الآن يا دارت».

أمسكت كولبي بيد دارت، وارتجفت شفتاها تأثراً.

«أسفة يا دارت. الحق عليّ في ما جرى».

«اعرف يا عزيزتي. هذا يؤكد لي ان الناريات الشعر لا يختلفن فعلاً عن غيرهن. بل ربما كن ايضاً اكثر تسبباً للمشاكل.»

وجالت عيناه على وجهها الطفولي، واستقرتا اخيراً على فمها الحزين الذي فقد آخر اثر للمرح والشقاوة. رفعت كولبي باضطراب خصلات الشعر المتهدلة على جبينها:

«هل تتألم يا دارت؟ لن اسامح نفسي ابداً على ما حدث!»

وفت عنه صرخة ألم وتقلصت كتفاه، فكادت كولبي تبكي خوفاً عليه. وهز الطبيب رأسه مؤنباً دارت.

«لا تخافي يا آنسة كولبي. دارت يمزح معك. رجل بصلابته يحتاج الى أكثر من قرن ثور ليبقى في الفراش. لا تخشي شيئاً سيتعافى بسرعة».

«لكنه ينزف بشدة يا دكتور. دارت ارجوك قل لي شيئاً! اي شيء».

«ما بك. هل تعتقدين باني سأموت قريباً! لن تفلتي مني بهذه السهولة يا عزيزتي».

وعادت ابتسامته المداعبة تتراقص على شفتيه. تنفست كولبي بعمق وارتمت ارضاً بجانبه، فاحتواها بذراعه القوية، وشدها قريباً من صدره.

«اهدأي يا صغيرتي. كل شيء سيكون على ما يرام».

وتركها تستريح قربه بضع دقائق ثم ابعدها عنه بحزم.

«هيّا اذهبي الآن. لا تستفزي حظك اكثر من ذلك. مايك سيعيدك الى المنزل».

«اعتقد انه من غير المجدي ان اقترح عليك العودة معي، لتنظيف الجرح؟»

«لا سأبقى هنا. فرانك سيعتني بي».

ولاحظ دارت للمرة الاولى، الدموع الحبيسة في عينيها، والتي تحاول كولبي جاهدة منعها من السقوط.

«كنت اعتقد ان افراد عائلة كينغ يستطيعون السيطرة على انفعالاتهم اكثر من ذلك».

«ربما كنت استثناء للقاعدة».

«لا يا عزيزتي. كنت دائماً مميزة الشخصية. واعتقد اني مجبر على تقبلك كما انت».

استرقت كولبي نظرة الى وجهه، فلم تستطع ان تتبين ملامحه تحت القبعة العريضة.

«كل ما استطيع قوله، يا دارت، هو اني آسفة».

«حسناً. على الاقل تعترفين بخطأك».

وقاطعهما صوت مايك فاراداي قائلاً:

«انا بانتظارك يا آنسة كينغ».

«شكراً يا سيّد فاراداي».

ونهض دارت من مكانه ليرافقها الى السيارة. وما ان استقرّت كولبي في مقعدها حتى صفق وراءها باب السيارة بعنف.

«اذهب بها الآن يا مايك».

قالها بقسوة، وانصرف عنهما مسرعاً. اغمضت كولبي عينيها وساد الصمت بضع دقائق قبل ان يقطعه مايك قائلاً:

«لا تدعي الحادث يؤثر عليك يا آنسة كينغ. كان من الممكن ان يحصل الشيء ذاته لاي كان».

«لكنه لم يحدث لاي كان. عمي سيروس كان يقول دائماً: النساء هن الديناميت المفجر لكل سوء يحصل».

«هذا تهرّب من الحقيقة».

واسترق مايك نظرة سريعة اليها، وعاد ليحدق في الطريق الممتدة امامه. ابنة عم دارت، لم تكن كما تصورها. كان يتوقع فتاة طويلة القامة عادية

الجمال، لا هذه الانثى الرقيقة الجسم، الجذابة الملامح، النارية الشعر.

«كم اتمنى لو لم يحدث ما جرى».

لم تستطع كولبي ابعاد ذهنها عن الموضوع. فنظر اليها مايك بجدية قائلاً:

«انسي الأمر يا كولبي... هل تسمحين لي بان ادعوك باسمك الأول. بفمك الصغير المرتجف، لا تبدين ناضجة بما فيه الكفاية لحمل لقب الآنسة كينغ».

وسيطرت كولبي فوراً على ارتجاف فمها، ورفعت كتفيها باعتداد قائلة:

«أعتقد بانك ستكتشف أني استطيع ان اكون الآنسة كينغ عندما تتطلّب الظروف ذلك».

قالتها بتعال، وضحكت للنظرة الحائرة في عينيه.

العشاء كان مرحاً رغم اصابة دارت. وشاركهم فيه الطبيب البيطري ومايك فاراداي.

انهمكت كولبي في مراقبة الوجوه الستة.

سوزان كانت مشغولة بما يقول لها مايك فاراداي، بينما كان دارت والطبيب يتحدثان عن شؤون المزرعة، وتشاركهما بين حين وآخر بتعليق يدل على سعة اطلاعها وخبرتها في هذا المجال. أما ستيفن فكان يستمتع بطعامه بحماس الفتى الذي لا هم له إلاّ أن يكبر. والتفت ستيفن اليها فجأة.

«هل اشتقت لي اليوم؟»

«في اللحظة التي هجم عليّ الثور تساءلت عما كنت ستفعله انت في مكاني؟»

«لا بد اني كنت سأصاب بالاغماء».

وضحكا عالياً. وشعرت كولبي بنظرة دارت تستريح عليها. كم يبدو وسيماً هذا المساء. حادث بعد الظهر لم يترك اي اثر عليه. وبدون سبب واضح عضت كولبي على شفتها السفلى. ما بها؟ لماالاضطراب؟

وكأن دارت احسّ بالصراع الدائر في أعماقها فأبعد عينيه عنها مبتسماً، ليصغي إلى حديث العمة بيللا. وأخذت كولبي ترسم باصبعها دوائر وهمية

على مفرش الطاولة وهي لا تفهم سرّ تسارع نبضات قلبها.

طبيعتها البريئة المتفتحة على الحياة، طرأ عليها تغيير مفاجيء، تلمسه من خلال الأحاسيس المتناقضة المتفاعلة في أعماقها. وأحسّت بالخوف منه وايضاً من نفسها، فهي لا تريد الغوص الى اعماق هذه العلاقة الجديدة التي تدفعها بعيداً عن عالم طفولتها. انها اكيدة من امر واحد فقط وهو ان دارت يريدها ابنة عمّ رقيقة، وناعمة، لا تسبب له ايّ مشكلة. وفي الاشهر السبعة المتبقية من وصايته عليها، ستحرص كولبي على البقاء كما يريدها.

«احذرك باني لن اسمح لك بتجاهلي الى هذه الدرجة!»

كان ستيفن يحاول جاهداً لفت انتباهها.

«مايك؟ كنت تبدين وكأنك منهمكة في حل مشاكل العالم كله».

«ربما كنت افعل ذلك فعلاً. في الحقيقة كنت اتساءل عما يجب عليّ تناوله مع الحلوى».

وضحكت كولبي فانفرجت اسارير ستيفن. ضحكتها الخفيضة كانت تضج انوثة وحيوية. فهمس لها:

«كولبي. ما رأيك بالفكرة التي سأطرحها عليك؟»

«فلتسمعها كلنا يا ستيفن».

والتفتت الوجوه كلها الى دارت الذي نطق بكلماته الاخيرة في نبرة جافة جعلت ستيفن يسرع بالاجابة.

«كنت سأقترح عليها افتتاح حلبة الرقص».

وغرّدت كولبي ضاحكة.

«يا لها من فكرة رائعة يا ستيفن. أعتقد اني سأستمتع بالرقص لو وجدت فعلاً الرفيق المناسب».

«لن تتفوقي عليّ يا صغيرتي».

والتفت ستيفن الى شقيقته ومايك فاراداي.

«وماذا عنكما؟»

نهض مايك من مقعده ليساعد بيللا على الوقوف مبعداً بتهذيب كرسيها عن الطاولة. ثم قال:

«هيّا اسبقني يا ستيفن. ضع الموسيقى المناسبة وسألحق بك».

وغمزت كولبي سوزان قائلة:

«الاقبال كبير علينا اليوم. هل تعتقدين ان السبب يعود الى النقص في عدد النساء».

«لا يهمني السبب. سأستغل الظرف الحالي».

وللمرّة الاولى ترى كولبي عيني سوزان تتألقان فرحاً، وشفتيها تتسعان في ابتسامة عريضة مشرقة.

وأسرعت سوزان وراء شقيقها ستيفن، ليغرقا بعد لحظات في مناقشة حادة حول الالحان الصالحة للرقص. اما كولبي فتبعت دارت.

«عزيزي دارت، أمل ألاّ تكون تضايقت من الفكرة».

«لا يا طفلتي العزيزة. افعلي ما يحلو لك طالما انت في حدود المعقول».

ابتسامته المداعبة دلّت بوضوح على انه يريد مداعبتها. فغيّرت مجرى الحديث.

«كيف تشعر الآن؟»

وعرفت كولبي ان الجواب لن يكون فيه أيّ أثر للجدية

«كيف تريدني؟»

«تبدو أكثر انسانية».

وتعلّقت عيناها بوجهه الرجولي، تبحثان عن سبب التغيّر الذي طرأ على علاقتهما. هذا الاحساس الجديد بالاضطراب والتوتر لم تكن تعرفه من قبل.

وساد صمت ثقيل بينهما، تابع فيه دارت مراقبة كولبي عن كثب، فانتفضت ساخرة.

«ما بك. ألا تعجبك الفتيات الحمراوات الشعر؟»

«أنا معجب بك انت وحدك»

كلماته خلت من السخرية. كان يتكلم بحنان

«ماذا حدث لنا يا دارت؟»

«أنا لم اتغير. لكني اعتقد بانك تكبرين»

«تقصد ان تقول انك كبرت».

«هل تعتقدين ذلك؟»

لم تستطع كولبي ان تتحمّل سخريته منها هذه المرة، فابتعدت عنه غاضبة، ترنّ وراءها ضحكته الهازئة. تباً لك دارت! يتعامل معها وكأنه السّيد المطاع. كيف لم تلاحظ ذلك من قبل؟

وارتاحت اسارير مايك فاراداي وهو يراها مقبلة نحوه. كم هي رشيقة، ورقيقة، وانثى! روشيل ستكرهها من النظرة الاولى. هذه المرأة لن تتنازل لاي كان. فهي من النوع الذي لا يسمح لاي كان، ولاي شيء بالتدخل في مشاريعه. ودارتلاند كينغ كان من احد مشاريعها ومعه كل الاراضي التابعة للعائلة.

«تبدين رائعة يا آنسة كينغ».

«شكراً يا سيد فاراداي. الاطراء موسيقى ناعمة تحب سماعها اي امرأة... برغم اني فهمت منذ قليل بانني ما زلت في طور الطفولة.»

استرق مايك نظرة من فوق رأسها الى دارت، وعلّق ضاحكاً:

«اعتقد ان المرأة لا تصبح امرأة فعلاً الا لدى انجاب طفلها الاول».

«اشك في ذلك يا سيّد مايك. بعض اقرب الصديقات اليّ عوانس. لكني لا اشك بانوثتهن لحظة واحدة!»

«فلندع الحديث جانباً. هل تسمحين لي بهذه الرقصة».

كان ستيفن وسوزان يرقصان وسط الغرفة بدون حماس. وباقتراب كولبي ومايك منهما صرخ ستيفن باحتجاج، مشيراً الى شقيقته:

«لا يمكن ان يستمرّ الوضع على هذا الحال. اريد ان اغيّر شريكتي. مايك. دع كولبي لي. وارقص انت مع سوزان».

وحاول مايك ان يخفي انزعاجه. فسوزان تمرّ في عمر صعب، وما لم يكن مخطئاً، يبدو انها بدأت تتعلق به عاطفياً.

ولم يكن مايك مخطئاً. اشرق وجه سوزان حين لامستها ذراعاه، ولمعت عيناها فرحاً. لاحظت كولبي التغير الذي طرأ على ملامح سوزان.

«الحب لعبة قاسية يا ستيفن».

«ما سبب هذه الملاحظة الآن؟»

« سوزان، ربما لا اودّ ان أكون حشرية لكن هل هي...»

«لا أعتقد. او على الأقل ليس في المرحلة الحالية. مايك يمشي على خطى دارت، اقصد انه ايضاً عازب لا يمكن الايقاع به بسهولة، واقناعه بالزواج انا لم التق حتى الآن برجل لديه قدرة الاكتفاء بالذات كالتي يملكها دارت. انظري كيف صمد امام كل محاولات روشيل التي استخدمت حتى الآن كل خدعها الانثوية للايقاع به.»

«لا تكن قاسياً يا ستيفن. لا يمكن ان تكون روشيل بهذا السوء».

«احكمي بنفسك. لكني اخاف ان تنشب اظافرها في وجهك. فانت رقيقة، وناعمة، و...»

«لا تستعمل اساليبك الملتوية معي يا ستيفن. انا محصنة ضد الرجال، على الاقل لخمسة اعوام مقبلة».

«لا اصدّق كلمة واحدة مما تقولين. فتاة جميلة مثلك لابدّ ان تتزوج قريباً».

ورنت اصداء كلماته الاخيرة في الغرفة، مع انتهاء لحن الاغنية. فسمعها دارت واقترب منهما.

«من هي التي ستتزوج قريباً؟ هل تخفي علينا كولبي شيئاً ما يا ستيفن؟»

«لا. كانت تقول بانها لن تفكر بالزواج قبل خمس سنوات على الاقل».

«وفقط اذا وجدت الشخص المناسب. لا تنسى انها لن تستطيع الزواج الا بموافقتي. فأنا سأبقى وصياً عليها لأكثر من اربعة اعوام».

وبدون سبب محدد شعرت كولبي بسعادة غامرة. وفتحت ذراعيها لابن

عمها تداعبه قائلة:

«هل تجد في نفسك القوة الكافية للرقص؟»

ولم تتوقع ان يستجيب دارت لتدانها. جرحه وحده كان كافياً لمنعه عن الحركة. لكنه اطفأ سيكارته، نافخاً دخانها الرمادي في الهواء، وتوجه الى كولبي، ليحتضنها بين ذراعيه، فيميلان معاً على ايقاع الموسيقى.

وقاد دارت خطوات كولبي برشاقة وليونة في الحركة. فتبعته طائعة وهي غارقة في ظلّ رجولته. وللمرّة الثالثة في تلك الامسية تشعر كولبي بالتوتر والاضطراب بدون سبب معين.

«أنت لست بالجودة التي كنت تدعين قبل قليل!»

تمتم دارت برقة وهو يشد قبضته عليها. فابتعدت عنه، لم تتحمل كرامتها مزيداً من السخرية.

«أعتقد ان طولك الفارع هو السبب يا دارت».

ولم يرد عليها بل التفت الى بيللا ليرفعها عن مقعدها قبل ان تدرك ماذا يحدث.

«يا الهي يا دارت. انا لم ارقص منذ زمن طويل».

وضاع احتجاجها في صخب الموسيقى، وتصفيق سوزان وستيفن اللذين وقفا قربها يشجعانها على الرقص. ومرّت السهرة في جوّ من المرح والانطلاق. وعندما خفتت الالحان لاحظت كولبي لمحة الم عابرة على وجه دارت فعلقت قائلة بسخرية:

«انت لست بالقوة التي كنت تدعي قبل قليل!»

٤ ـ سطوة الوصي

ما كاد يمر يومان على عودتها من احدى زياراتها الموسمية الى العاصمة، حتى كانت روشيل تينانت تدق باب كنغارا. لم تأت لتفقد اصدقائها كما قالت، بل لتلقي نظرة على الآتية الجديدة. وكعادتها وصلت روشيل في وقت لم يكن احد يتوقع حضورها، اي قبل موعد الغداء بقليل.

كولبي لم تكن في المنزل، كانت تتجول و بوكا في احضان الطبيعة، تأسرها رواياته عن اسرار النباتات والارض والكائنات التي ترتبط بتقاليده ومعتقداته البدائية.

وقفت كولبي باحترام قرب بوكا الذي اختار بقعة محددة من الارض اخذ يضربها بعصاه ليبرهن لكولبي انه قادر على ايجاد الماء حيث يعجز الرجل الابيض عن ذلك. لم تسمع الشابة اي صدى للعصا في الاحجار الرملية. وعند الضربة الرابعة تفتت قسم من الحجر فتفجرت من تحته مياه حلوة نقية. مدّ بوكا يديه واخذ يشرب من المنهل العذب. اما كولبي فراحت ترطب بالرذاذ المنعش وجهها الذي لوحته حرارة الشمس.

ثم قام بوكا باخفاء المكان السري الذي اكتشفه وتركه تحت حماية الثعبان الكبير رمز المحاربين في قبيلة الكنغارا . فهذه المياه سرية ومقدسة ورثها عن اجداده. ودلّ وجه كولبي المنحني بجدية انها تقدّر الشرف العظيم الممنوح لها.

ومرّت ساعة اخرى قبل عودتهما إلى المنزل الكبير. توقف بوكا في الحديقة ليلهو قليلا بقسطل المياه يداعب به الزهور الملونة المتعطشة للمرح. وراقبته

كولبي فترة قبل ان تقول له انها ذاهبة لتناول طعام الغداء. والتفت اليها مودعا، ناسيا القسطل في يده، ففرقت كولبي تحت سيل من المياه المتدفقة. ضحكت عالياً والماء يتساقط من شعرها وفستانها. وحاولت كولبي ان تتسلل الى المنزل من الدرج الخلفي، فلا يراها احد وهي في هذا الوضع. لكن بيللا فاجأتها في اللحظة الاخيرة.

«يا الهي ما بك يا كولبي . هل سقطت بالنهر؟»

«لا. كنت الهو و بوكا. فاغرقني في الماء بدون انتباه».

«يا له من قرد صغير».

انحنت بيللا على الشرفة وصفقت منادية بوكا. فاسترق اليها نظرة واحدة وفر هارباً خوفاً من العقاب.

«ارجوك يا عمتي بيللا. لم يقصد بوكا...»

وتوقفت عن الكلام عندما رأت سوزان التي خرجت من المنزل برفقة فتاة في منتصف العشرينات، اخذت تنظر الى كولبي بكثير من السخرية.

ترددت بيللا برهة. هل هذا هوالوقت المناسب فعلا لتقديم الفتاتين الى بعضهما؟ كولبي تبدو كطفلة عابثة بفستانها المبلل، وبقطرات المياه تتساقط على جبينها وانفها من المنديل الذي ربطت به رأسها على غرار القراصنة. سوزان بدت مستاءة فعلا من مظهر كولبي.

«كولبي، يا الهي ماذا فعلت بنفسك؟ روشيل جاءت لزيارتنا».

«اهلا بها. آسفة. هل لي بدقائق قليلة اذهب فيها لامسح هذه الشلالات الصغيرة عن وجهي...لن اتأخر».

وركضت الى غرفتها وهي تسمع صوت روشيل يرن وراءها ساخراً:

«هذه هي اذاً ابنة عم دارت».

وبعد دقائق عادت كولبي الى غرفة الجلوس، فتاة مختلفة تماماً. فستانها الاخضر الفرح جعلها تبدو كزهرة صحراوية برية. كانت روشيل تروي طرفة لجمهورها المتجاوب، لكنها توقفت فجأة عند دخول كولبي لتعلق ضاحكة:

«لم اعرف انك حمراء الشعر».

«انت روشيل طبعاً. انا سعيدة لمعرفتك».

«اخبريني يا آنسة كينغ، عن السبب الذي دفع بك لاجتياز كل هذه المسافات؟ لا بد انك ستجدين المكان مملا بشكل مخيف! ستشتاقين الى اضواء المدينة ووسائل اللهو المتوفرة هناك».

ابتسمت لها كولبي ببراءة مصطنعة، وهي تجيبها مداعبة:

«اعتقد اني سأجد رجالا اكثر هنا يا روشيل! ارجوك ناديني بكولبي، الجميع يفعلون ذلك».

«انت انسانة صريحة جداً اليس كذلك؟ لكن لم تجيبي عن سؤالي بعد».

وهبت بيللا لمساعدة كولبي، ضايقها ان تخاطبها روشيل بهذا الاسلوب.

«هذا كان بيت كولبي، وسيبقى ما دامت ترغب في ذلك. بعض فتياتنا تجذبهن اضواء المدينة لفترة، لكنهن يعدن دائما الى الجذور. فلهذه المنطقة النائية سحر خاص بها، يأسر كل الذين عاشوا فيها. وسواء احبها المرء ام كرهها، فلا بدّ ان يعود اليها».

وتأثرت كولبي من محاولة بيللا ترطيب الاجواء، وتساءلت عن السبب الذي جعل سوزان تتعلق الى هذه الدرجة بصديقتها روشيل. لقد شعرت بغريزتها الانثوية ان هذا النوع من النساء لن يكون ابداً صادقاً مع واحدة من بنات جنسه.

كانت روشيل تتمتع بجمال أخاذ. شعرها الاسود المتموج الخصلات سرحته بعيداً عن جبينها عند اعلى رأسها بعقدة انيقة. بشرتها الصافية كان تميل الى سمرة برونزية، وفي حركاتها اللامبالية رشاقة كسولة. اما عيناها الداكنتان فضيقتا الفتحة وتلمعان ببريق ساخر. كانت روشيل تتكلم بشيء من التعالي والى جانبها سوزان مأخوذة بما تقوله صديقتها، وهي بادية السعادة بالزائرة الجديدة.

«سوزان. هل لك يا عزيزتي بجلب كوب من الشراب البارد حالاً فقد جف من طول

الطريق».

كان صوت روشيل أمراً، فاطاعت سوزان بسرعة. ووجدت كولبي نفسها تنظر الى بيللا بتساؤل. فابتسمت قائلة:

«روشيل ستبقى معنا ليومين او أكثر. وهكذا يتسنى لكما الوقت لمعرفة بعضكما افضل. ربما يستطيع دارت ان يرتب نزهة الى اقصى البلاد. هذا اذا لم يكن مشغولا».

وعادت سوزان الى الغرفة تحمل صينية عليها ثلاثة اكواب من الشراب المثلج. فرفعت بيللا حاجبيها:

«وانا ايضاً اريد كوباً من الشراب يا سوزان».

وتلعثمت سوزان وهي تقول باضطراب:

«لكن يا أمي...»

«شكراً لك يا عزيزتي».

تضايقت بيللا من قلة ذوق ابنتها. ستتكلم معها لاحقاً في هذا الشأن.

ونقلت روشيل اهتمامها الى كولبي.

«علينا ان نعمل على جعل اقامتك ممتعة بيننا. في اي حال سبعة اشهر تمر بسرعة. اتصوّر انك تريدين الاستقلال الذاتي في اسرع وقت ممكن. دعي الامر لي. سأكلم دارتلاند».

كادت كولبي تضحك لكنها تمكنت من السيطرة على نفسها. دارتلاند! لم تسمع احداً من قبل يناديه بهذا الاسم، حتى والدته.

خرجت بيللا من الغرفة لتداري انزعاجها من تصرفات روشيل. قالت انها ذاهبة لتشرف على اللمسات النهائية لطعام الغداء. اغلقت الباب وراءها وهي تسمع روشيل تقول لابنتها سوزان:

«عزيزتي سوزان. عليك ان تفعلي شيئاً في شأن بشرتك!»

وتلمست سوزان وجهها وهي تصغي باهتمام الى روشيل تصف لها بعض العلاجات الخاصة بالبشرة الجافة. ولم تتحمل كولبي مزيداً من ذلك. نهضت

من مقعدها، اعتذرت من الفتا تين وخرجت الى الشرفة.

مرت ساعات بعد الظهر ثقيلة على قلب كولبي. فغالباً ما كانت تشعر بعيني روشيل الناقدتين تحدقان فيها. سوزان على الاقل كان تستمتع بوقتها، غير مهتمة للملاحظات المضحلة التي كانت تقوم بها صديقتها على حسابها. كانت منهمكة في تقليب صفحات مجلات الازياء الامريكية والبريطانية التي احضرتها روشيل معها.

وحاولت كولبي جهدها ايجاد قاسم مشترك للحوار بينها وبين هذه الفتاة التي تتصرف كصديقة حميمة للعائلة، لكنها وجدت الامر صعبا. فروشيل انسانة جافة باردة ينقصها الكثير من الصدق والصراحة والدفء. ولهذا ظل الحديث بينهما سطحيا يتناول مواضيع عامة.

وعاد الرجال بعد مغيب الشمس، فصار الجو اكثر مرحا. دخل دارت الى غرفة الجلوس تحيط به هالة من الحيوية تميز عادة الرجال الذين يمضون معظم اوقاتهم في الهواء الطلق. عيناه الرماديتان تألقتا ببريق فضي تحت الاضواء الخافتة.

وتوجه دارت مباشرة الى روشيل التي احنت قامتها بدلال ورسمت على فمها القرمزي ابتسامة رائعة:

«دارتلاند كم هو رائع ان اراك مرة ثانية».

«انت ضيفة خاصة جداً في كنغارا يا روشيل».

وابتسم لها وهو يلقي بيده بتكاسل على كتف كولبي التي لم تر في جملته الاخيرة اي شيء يبرر حمرة الخجل التي لونت وجه روشيل.

«لماذا كنت تخفي عنا يا دارت ابنة عمك كولبي. يا لها من طفلة جميلة ورقيقة».

وصرخت كولبي بحدة.

«طفلة...»

دخل ستيفن الغرفة وقبل رأس والدته سائلا:

«من هي الطفلة الجميلة الرقيقة؟»

«انا يا ستيفن. او على الاقل روشيل ترى ذلك».

رد كولبي جاء ساخراً، فالتفت ستيفن الى روشيل.

«لا اوافقك رأيك يا آنسة تينانت. كولبي تبدو اكثر كأميرة حالمة لا نراها الا في كتب الاساطير. طبعا رأيي غير مهم. فانا ايضاً صبي صغير».

«ربما».

اجابته روشيل برقة مصطنعة، فابتسم ستيفن لكولبي.

«كيف وجدت الآنسة تينانت الجذابة؟ جاءت لتلقي شعاعاً من الدفء والسعادة في حياتنا الحزينة».

وردت روشيل وهي تحاول السيطرة على غضبها.

«شيء من هذا القبيل يا ستيفن».

وتدخل دارت ليرطب الاجواء المتوترة.

«كفوا جميعاً عن هذا المزاح».

ونهضت بيللا من مكانها.

«سأذهب لاتأكد من أن العشاء اصبح جاهزاً...ستيفن، اذهب واسأل مايك ما اذا كان يرغب في الانضمام الينا. قل له ان روشيل هناء».

وخرجت بيللا من الغرفة ووراءها ستيفن وسوزان. ووضعت روشيل بين شفتيها السيكارة التي قدمها اليها دارت، واحنت رأسها في اتجاهه ليشعلها لها.

«كنت اقول لكولبي اننا سنفعل كل ما في وسعنا لجعل اقامتها ممتعة بيننا. لا نريدها أن تمل اليس كذلك؟»

نفث دارت سيكارته في حلقات رمادية تصاعدت في الهواء، والتفت الى كولبي مبتسماً.

«هل تعتقدين بانك ستشعرين بالملل هنا يا كولبي؟»

«في بعض المناسبات فقط وارجو الا تطول!»

فعلقت روشيل بضحكة مصطنعة.

«يا لك من طفلة شقية! ما رأيك يا دارت؟»

«لا يمكن توقع ما ستفعله بعد دقائق».

وكادت كولبي تصرخ غضباً، الا انها تمالكت اعصابها عندما التقت عيناها بعينيه المداعبتين.

«فليسمح لي الكبار بالانصراف الآن. اود ان استبدل ثيابي للعشاء».

وصعدت كولبي الدرج راكضة الى غرفتها. توقفت طويلا امام المرآة، تنظر الى صورتها بعين ناقدة، كم تمنت لو كانت اكثر طولا. لا تستطيع ان تنكر ان دارت وروشيل يليق كل منهما للآخر فعلا! وشعرت بغصة وهي تتخيلهما معاً. فمدت لسانها بحركة طفولية للوجه الصغير القلق الذي يتراءى لها في المرآة. ما بها تعلق كل هذه الاهمية على شعور روشيل تجاهها؟ لا يمكنها ان تفرض محبتها على الجميع...لكن روشيل تنظر اليها دائما بسخرية مزعجة تضايقها فعلا.

وانتهت كولبي من اعادة ترتيب زينتها، وارتدت فستاناً حريرياً برتقالي اللون. ما زال امامها ساعة كاملةللعشاء. اختارت كتاباً وجلست تقرأ. واستغرقتها القصة فلم تشعر بمرور الوقت، حتى دقت ساعة البورسلين الصغيرة تشير الى السادسة والنصف.

نزلت الى غرفة الجلوس، فوجدت ان روشيل سبقتها الى هناك. وما ان رأتها تدخل حتى علقت قائلة:

«تبدين اصغر من عمرك يا كولبي. واضح انك نشأت محاطة بالعناية والحنان. وهذا لن يفيدك في هذه الارض القاسية. تذكري بانك لم تعودي طفلة».

«اعرف جيداً انني لم اعد طفلة يا روشيل».

«يلزمك بعض الوقت.»

«بعض الوقت لماذا».

«لتعرفي انك لا تنتمين الى هذه الارض».

«لا اعرف لماذا تتصرفين معي بهذا الجفاف يا روشيل. لكنك مخطئة. انا انتمي الى هذه الارض. اناجزء منها وهي جزء مني».

«حسناً. لا اعتقد باني سأحبك ابداً يا كولبي. وان كنت ساتظاهر بعكس ذلك امام دارت. انا سأفعل اي شيء للحصول عليه».

«تفاجئينني دائما...»

ودخل ستيفن الغرفة، فكفت كولبي عن الحديث.

«ما بكما، اشعر بالتوتر في الأجواء».

«اعتقد ان الآنسة كيتغ الصغيرة لا تحبني».

«اعطها بعض الوقت. الم تتعلم كلنا ان نحبك!»

وكاد الحديث يتحول الى مشادة حامية لولا دخول بيللا ووراءها دارت ومايك وسوزان. بيللا بدت انيقة جداً في ردائها الوردي. اما سوزان فكانت مختلفة بشعرها المسرّح. مايك ودارت استبدلا قمصانهما العادية بقميصين حريريين ابرزا لون وجهيهما البرونزيين.

وجلست كولبي تراقبهم جميعا. تخلت روشيل عن كل تصرفاتها الهازئة لتحيّ القادمين برقة وانوثة. سألت مايك بدلال عن احواله، وافسحت مجالا لبيللا لتجلس قربها على المقعد العريض. بدت وكأنها تعتقد فعلا انها جزء من العائلة.

ولاحظ ستيفن صمت كولبي فجلس قربها يخبرها بتفصيل ومرح عن الاحداث التي حصلت له ذاك اليوم. وضحكت له كولبي مشجعة ودخلا في حديث جانبي بعيداً عن الحوار العام الدائر في الغرفة. وقاطعها صوت دارت الذي علق عاليا، يحاول لفت انتباهها.

«لا اعتقد انهما سمعا ما نقول».

وضحكت روشيل ضحكة مشبعة بالمعاني.

«طبعا لا. في اي حال تستطيع ان تخبرهما بعد العشاء».

ولم تذكر كولبي ما حدث بعد ذلك. نسيت كل شيء، وهي ترى دارت ينظر الى كولبي بغضب. ترى ماذا قالت له عنها؟ هذه الفتاة لا تحلب الا المشاكل.

وقطع حبل افكارها صوت ستيفن يعاتبها ضاحكاً:

«ما بك؟ هل اصبحت فتاة سلبية لا تعرف معنى كلمة لا».

ولم تفهم كولبي قصده فتابع قائلا:

«في الدقائق الاخيرة اجبت بنعم على اكثر اقتراحاتي سخفاً».

«آسفة يا ستيفن. لم اسمعك. يبدو اني كنت احلم».

«لاحظت ذلك».

وجاء دور الحلوى. فتناولت كولبي شيئاً منها وهي تحاول السيطرة على انفعالاتها. كانت تشعر بنظرة روشيل القاسية والساخرة تستقر عليها بين وقت وآخر. ومن حسن الحظ ان بيللا وحدها كانت تدير دفة الحديث. لم يكن على كولبي الا اظهار اهتمام مهذب. وتشعب الحديث حتى تناول وسائل الترفيه المتوفرة للسيدات في تلك المنطقة. فتبرعت روشيل بتقديم اقتراح لتمضية اجازة خاصة جداً.

«ما رأيكم بليلة نخيم فيها في العراء تحت النجوم، ونتحلق حول النار وسط احدى البقع النائية».

وتكاسلت نظراتها على دارت وهي تتابع بغنج:

«وبما انكم معنا، فلن نخشى شيئاً».

تحمست سوزان للفكرة ووافق عليها دارت. اما كولبي فانزعجت من الاهتمام الواضح الذي ابداه ابن عمها لاقتراح روشيل. حتى هو لن يستطيع الصمود امام اغراء فتاة كهذه. وخرجت كولبي الى الشرفة فور انتهاء العشاء، فلحق بها مايك.

«ما بك يا كولبي. اتمنى ان لا تكون روشيل قد تمكنت منك!»

«هل بدا عليّ ذلك؟»

«وجهك البريء، ما زال صغيراً عل ارتداء الاقنعة».

«في اي حال فكرة روشيل القيام بهذه الرحلة لا بأس بها سأهتم بك واحميك يا كولبي الصغيرة».

«وهل تعتقد فعلا أني بحاجة لمن يحميني».

وعادا الى غرفة الجلوس. اسرعت سوزان لتستأثر باهتمام مايك، فاستغلت كولبي الفرصة لتهرب مجدداً الى الشرفة. كانت تريد البقاء وحيدة لفترة.

الليل كان موحشاً وداكناً والسماء ملبدة بالغيوم. حاولت كولبي ان تفكر في امر يريحها ويفرحها، فاتجهت بافكارها الى سورشا، فرسها الجميلة التي لم تتعرف الى مثل اصالتها على الاطلاق. وهي الآن ملكها... تخصها وحدها.

وسمعت كولبي وقع اقدام وراءها، فحاولت ان تختفي في الظلال الداكنة. لكن دارت كان اسرع منها فامسك بمعصمها بشدة واخرجها الى بقعة النور المتسللة عبر الباب المفتوح.

«ماذا تفعلين يا صغيرتي!»

«كنت افكر في سورشا».

«قولي الحقيقة يا كولبي. هل بدأ قلبك الشاب يعرف معنى الحب».

واحمرت كولبي بحمرة الخجل تلون وجنتيها.

«آه يا دارت. كيف استطعت ان تقول ذلك. انا لم اعرف معنى الحب بعد».

«حسناً. ابتعدي عن الافكار الرومانطيقية حتى اسمح لك انا بها. انا الوصي عليك. وسأحميك حتى تصبحي بالنضج الكافي للاهتمام باموركِ الخاصة».

وابتعدت عنه جريحة الكرامة.

«انت لا تطاق. يا لك من انسان مستبد يا دارت. سافعل ما يحلو لي!»

«حقاً! سنرى! كنت دائما طفلة عنيدة، لكننا سنرى ما ستفعلينه هذه المرة».

٥ ـ فرس في الافق!

اشرقت الشمس بكل جلالها لتغرق الارض باولى هبّات الموسم الحارّ. اختالت مبطئة في قبة السماء، ورمت بردائها الذهبي على العشب الطري الذي استيقظ للحياة عند اولى زخات امطار تشرين/اكتوبر.

القطعان انتشرت بتكاسل على التلال تلتهم الطعام في هدوء تحت اشراف العمال الذين استفاقوا مع الفجر ليعتنوا بها.

وفي الافق، ركضت فرس بنية اللون تسابق الريح جذلى وهي تفتح صدرها لروعة الشروق. واستراح دارت على صهوة جواده يرافبها عن بعد. لابد انها كولبي! كم من الاميال يا ترى قطعت هذا الصباح. يجب ان يمنعها من الابتعاد عن المنزل اكثر من اثني عشر ميلاً، ما لم يكن معها رفيق يحميها. وابتسم وهو يتخيّل رد فعلها على هذا القرار الجديد.

يالها من فارسة ماهرة. كانت تشكل والفرس وحدة منسجمة تتمايل على الايقاع ذاته. شعرها كان يتطاير في الهواء حراً بعدما سقطت قبعتها عن رأسها، لتستقرّ على ظهرها عالقة بخيط رفيع حول العنق.

تستطيع هذه الفتاة رغم رقتها، ان تتعامل مع معظم الخيول في اسطبله. طبعاً ما عدا جواده الخاص الذي يحتاج الى قوة رجل للسيطرة عليه. ها هي تقترب منه الآن! انه يرى ملامحها تتألق فرحاً بروعة الصباح، وحمرة خفيفة تركتها الشمس على وجنتيها. لوحت له بيدها، وصرخت عن بعد:

«دارت انتظرني!»

كم مرّة سمع منها هذه العبارة حين كانت طفلة. انفرج فمه عن ابتسامة

ساخرة فور وقوفها الى جانبه.

«ارى اني لم اضيّع بدون جدوى ساعات طويلة في تعليمك الفروسية. انت فارسة اصيلة يا آنسة كولبي».

«فرسي هي الاصلية».

كانت فخورة بها. انحنت تربت بحنان على عنقها الجميل الحساس.

«قولي لي يا آنسة كولبي. ما هي المسافة التي قطعتها اليوم؟»

وضحكت عيناها وهي تشدّ لجام سورشا لتدور بها حول دارت:

«ارفض الاجابة على اي سؤال قبل الساعة العاشرة صباحاً».

واضافت مداعبة:

«لا تقل لي انك ستصدر قراراً جديداً، يا عزيزي دارت، يحدد المسافة المسموح لي بان اجتازها كل يوم».

وقطب دارت حاجبيه. وقبل ان يجيب بكلمة واحدة انطلقت كولبي بفرسها. وعلى بعد امتار قليلة انحنت برشاقة لتقطف وردة قبل ان تنتصب باعتداد على صهوة فرسها. وعادت الى دارت والوردة في شعرها، رمزاً انثوياً للانتصار.

جمد دارت كالتمثال فوق حصانه، ولم يخن وجهه الصلب ما يشعر به. لجمت كولبي فرسها قربه وهي تحس بالحياة تضج في عروقها. وفجأة تحرّك دارت كالشرارة ليرفعها عن صهوتها بلمحة خاطفة، ويضعها على السرج امامه.

«ما زال أمامك الكثير لتتعلميه».

ونظرت اليه معجبة بمهارته وسرعته. كانت الشمس تتلاعب فوق وجهها الجذاب، وبدت عيناها الخضراوان اكثر اخضراراً. واجابته بمرح طفولي:

«أليس امامنا جميعاً الكثير بعد لنتعلمه؟»

والتقت نظراتهما في تحدّ. فاعاد دارت وضع القبعة على رأسها قائلاً:

«هذه القبعة صنعت لترتديها».

وبضربة خفيفة ارسل سورشا عائدة الى المنزل بدون فارستها التي ظلت

اسيرة على جواد دارت.

روشيل وسوزان كانتا تتسامران في الشرفة عندما وصلا الى البيت الكبير. ترجل دارت اولاً ورفع ذراعيه ليساعد كولبي لكنها كانت قد سبقته بالقفز عن صهوة الجواد بلا مساعدة.

وسلم دارت لجام الجواد الى بن الذي يظهر دائماً في الوقت المناسب، وكأنه يشعر بحدسه ان دارت في حاجة اليه. وابتسمت كولبي للعجوز وهي تسأله:

«هل عادت سورشا الى المنزل؟»

«نعم يا آنستي. هي في الاسطبل الآن. نزعت عنها سرجها ونظفتها من الغبار العالق بها. انها فرس اصيلة وانت تعرفين كيف تتعاملين معها».

وأحنت روشيل رأسها فوق السور الحديدي.

«استيقظنا باكراً. ارى حصاناً واحداً. لماذا؟»

فأجابها دارت مبتسماً:

«كنا نمارس بعض الالعاب الفروسية. من اعدّ لي طعام الفطور؟ انت يا روشيل؟ صباح الخير يا سوزان. هيا جميعاً الى غرفة الطعام».

كان ستيفن قد سبقهم الى المائدة. اما بيللا، فكانت تحرص دائماً، كسيدة كنغارا، على تناول الفطور في فراشها. لاحظت كولبي صحن ستيفن العارم بالبيض المسلوق، والبطاطا المقلية، واللحم، فضحكت مداعبة:

«يا إلهي هل ستأكل كل هذا؟»

«نعم، معدتي ليست كمعدتك مثل العصفور».

وابتسم وهو يبتلع قطعتين كبيرتين من الخبز مشبعتين بالزبدة. ونظرت سوزان الى كولبي وهي تتناول طعامها.

«كم أتمنى لو استطيع ان اتبع نظاماً غذائياً مثلك لاحافظ على رشاقتي».

وضحكت كولبي عالياً.

«ولكني لا اتبع اي نظام غذائي. انا من الناس الذين يحرقون بسرعة الوحدات الحرارية الزائدة».

«يا لك من محظوظة».

وقاطعها دارت.

«اذا وافقت الفتيات على الفكرة، سنذهب غداً الى منطقة كوكا ـ يارا ـ بوندي، وسنخيم ليلاً في التلال. اعتقد انكن ستستمتعن بهذه الرحلة».

وكانت روشيل اول من وافق على الفكرة.

«رائع يا دارت. طبعاً ستأتين معنا يا سوزان!»

«طبعاً. لن يستطيع احد ان يبقيني في المنزل».

ولم تتمالك نفسها من الالتفات مبتسمة الى كولبي التي بدأ سحرها العفوي يتسلل الى اعماقها.

«ستستمتع بوقتنا. أليس كذلك يا كولبي؟»

«نعم. اتصوّر الآن نيران المخيم بهالتها البرتقالية البراقة، واطراف السكائر المشتعلة، والوجوه البرونزية المألوفة. وارى القمر يتأرجح في السماء ليلقي بخيوطه الفضية على الخيول الساكنة في الظلمة. واسمع اصوات الحيوانات الليلية تنطلق من الزوايا السرية والارض...»

«يا لك من انسانة رومنطيقية».

كانت هذه روشيل تقطع ببرود الحلم الذي كانت تنسجه كولبي بحب. فالتقط دارت آخر الخيط وتابع نسج اللوحة وفي عينيه شيء ما اضاف على الحلم بعداً جديداً.

«والأرض تعبق بالف عطر وعطر. انها ارض الاساطير، والاحلام، والاسرار. التراب يضج بقصص الماضي، وبالرموز الدينية التي يؤمن بها السكان الأصليون».

ولم تترك عينا روشل وجه دارت وهو يتحدث بحلم عن الارض التي يعشق.

«وصفك رائع حقاً يا دارت. امضيت في هذه البلاد اربع سنوات وما زلت لا أعرف عنها شيئاً».

أرادت كولبي في تلك اللحظة ان تقول لروشل ان السكان الاصليين لا

يكشفون اسرارهم وتقاليدهم الا للذين يبرهنون عن جدارة بالثقة، وعن احترام لتراثهم. وان روشل بتصرفاتها الجافة لم تفعل شيئاً لتتقرب منهم. لكنها لم تقل شيئاً بل تابعت الحديث حيث توقف دارت:

«اساطير السكان الاصليين هي جذور طفولتي. هل تذكر العجوز مولا يا دارت. كان يقول ان الذي ينسى حلمه هو انسان ضائع».

«نعم. اذكر يا كولبي. للحلم اهمية كبيرة في حياتهم ومعتقداتهم وتقاليدهم».

وشعرت روشل انها بعيدة جداً عن الحديث فتدخلت تقطع السمر:

«سخبرني لاحقاً عن كل هذه القصص المسلية. اليس كذلك يا دارت؟»

وابتسمت له بدلال.

«طبعاً يا روشيل. ما رأيك بالليلة؟»

وفضح وجه روشيل لهفتها.

«حسناً. الى هذا المساء».

«سأذهب الى الحظائر الآن. لو خطر لك ان تلحقي بي فسأكون قرب النهر».

والتفت الى كولبي ليضيف:

«ولا تنسي وضع قبعتك. أنا لا اضطر الى تذكير روشيل او سوزان بذلك».

وفور انصراف دارت، اعتذرت روشيل وخرجت لتستلقي تحت اشعة الشمس.

«تعالي معي يا سوزان».

«سألحق بك بعد دقائق. عليّ اولاً تنظيف الطاولة».

فعرضت كولبي خدماتها.

«اذهبي يا سوزان. سأقوم عنك بالعمل».

«شكراً روشيل وأنا لدينا الكثير بعد لنتحدث عنه».

ورمت بمنديلها على الطاولة لتلحق بصديقتها وانصرفت كولبي الى العمل وهي شاردة الذهن. فلم تسمع السيدة ايفانز تدخل الغرفة.

«صباح الخير يا آنسة كولبي. شكراً لمساعدتك».

«هل تسمحين لي بتجفيف الأواني بعد انتهائك من غسلها».

«أتريدين ذلك حقاً يا كولبي؟»

«ولما لا؟ أعتقد ان لديك الكثير من الأعمال تريدين انجازها».

«لا أنكر ذلك. لكن... حسناً، تعالي معي الى المطبخ. لن اضطر على الاقل الى لملمة بقايا الاواني المتكسرة بعد انتهائك من تجفيفها».

وضحكت كولبي وهي تلحق بها. وبعد فترة دخلت ميني الخادمة الصغيرة. كان لها اطول رموش رأتها كولبي. وابتسمت ميني بخجل فقامت السيدة ايفانز بالتعارف.

« ميني... هذه كولبي، ابنة عم السيد دارت. هيا يا صغيرتي، خذي هذه السلة واذهبي الى الحديقة. اختاري لنا اجمل الورود قبل ان تذبلها حرارة الشمس. ولا تتأخري كعادتك».

«وفور عودتك يا ميني، سأقوم بترتيب الزهور في الأنية الملونة».

وابتسمت ميني بثقة وهي تحيي كولبي. وخرجت تتايل بمشية راقصة لتعود بعد قليل بمهرجان رائع من البنفسج والورد. وعندما بدأت كولبي تنسيق الزهور في كل ارجاء غرفة الجلوس، وقفت ميني تراقبها بصمت لدقائق وهي تتأرجح على قدم واحدة.

«ما رأيك يا ميني. هل اعجبك تنسيق الزهور؟»

«لم أر اجمل منه».

«أنا متأكدة انك تستطيعين القيام بالعمل ذاته بل وبطريقة افضل».

«أعتقد اني سأكون افضل في هذا العمل من تجفيف الصحون التي لا اعرف كيف تنساب من بين اصابعي بدون ان اتمكن من التقاطها».

وضحكت الفتاتان. واعتذرت ميني من كولبي فور سماعها وقع قدمي بيللا.

«عليّ ان اذهب الآن، السيدة الكبيرة آتية».

واختفت فور دخول بيللا الغرفة.

«صباح الخير كولبي. ما أجمل هذه الزهور. نسقتها فعلاً بكثير من الفن والحب. اين سوزان وروشيل؟»

«في الشرفة يا عمتي».

«تتحدثان كالعادة. لن نزعجهما. ما رأيك يا عزيزتي في تناول الشاي معي. السيدة ايفانز تحضره لي كل صباح في غرفة الجلوس الخاصة بي، تعالي معي».

وسبقتها الى الجناح الغربي من المنزل. وعندما دخلت كولبي غرفة الجلوس الخاصة ببيللا وقفت تتأملها برهة. انها الغرفة الوحيدة في المنزل التي تحمل طابعها الخاص. الالوان دافئة تتدرج بين تموجات البرتقالي والذهبي. الرفوف كانت تحمل عدداً كبيراً من الكتب، وازدانت الجدران بلوحات تمثل التلال الرملية عندما تخلع عليها شمس المغيب ظلالاً قرمزية. وأغلقت بيللا الستائر.

«سيكون هذا النهار شديد الحرارة».

«احبّ الحرّ يا عمتي، يجعلني اشعر بالحيوية».

«كم تشبهين دارت، هو دائماً يقول ذلك. لكن انتبهي، يا عزيزتي. لا تتعرضي كثيراً لأشعة الشمس، انها مؤذية».

ودخلت السيدة ايفانز بعد ان نقرت على الباب بضربة خفيفة.

«رأيت الآنسة كولبي تدخل معك فأضفت فنجاناً آخر».

«شكراً لك».

تركت السيدة ايفانز الصينية الحافلة بانواع الحلوى وخرجت بعدما اغلقت وراءها الباب بهدوء.

جلست بيللا وراء المائدة الصغيرة، لتصبّ الشاي من الابريق الفضي برشاقة تدل على خبرة طويلة. وراء الاواني الفضية لم يعد فيها شيء من المرأة المزارعة، بل بدت على طبيعتها سيدة ارستقراطية جاء بها العم سيروس من المدينة، وانتزعها من محيطها الطبيعي، لتهتم بشؤون كنغارا.

«هل تحبين الحليب مع الشاي يا كولبي؟»

«لا شكراً يا عمتي».

ودخلت ميني تحمل وعاء السكّر. أرادت ان تؤدي تحية مهذبة فانحنت باحترام. لكن محاولتها انتهت بان علق ابهام قدمها بالسجادة فتعثرت ووقعت في حضن بيللا. لكنها لم تكسر شيئاً هذه المرة.

«لم أكسر شيئاً هذه المرة يا سيدتي».

وحافظت بيللا على برودة اعصابها وهي تقول:

«حسناً يا ميني. اخرجي الآن».

وحاولت كولبي السيطرة على ضحكاتها المكتومة وهي ترى استياء بيللا. انها تحب ميني برغم كل الكوارث الصغيرة التي تحدث فور دخولها المنزل. وتناست بيللا الموضوع.

«كولبي. قلت لي أمس انك تريدين مساعدتي في المراسلات. لا اريد ان استعجلك. لكني سأكون سعيدة جداً لو وفيت بوعدك. لا تعرفين كم اكره هذا العمل».

«انا سعيدة لأني أستطيع مساعدتك يا عمتي. انني أكره البقاء بدون عمل».

وترددت بيللا قبل ان تتابع قائلة:

«هل تساعدينني اليوم؟»

«ولمَ لا الآن؟»

ومرّ الصباح في انجاز المراسلات.

عادت روشيل وسوزان من نزهة بعد الظهر وهما تتألقان نشاطاً وحيوية. كانت كولبي تقف في الشرفة تبحث عن بوكا. تريده ان يسمع البرنامج الدرامي الذي يبثه الراديو المحلي يومياً لاطفال السكان الأصليين.

ونظرت اليهما سوزان عاتبة.

«ماذا حدث لك؟ اين كنت؟»

«كنت اساعد العمة بيللا. هل استمتعتما بوقتكما؟»

أجابتها روشيل بحدة:

«وما الذي يجعلك تعتقدين اننا لم نستمتع بنزهتنا؟»

استغربت سوزان ردّ فعل صديقتها. فعقدت حاجبيها استياء. كم كانت تشبه والدتها في تلك اللحظة.

«دارت سأل عنك يا كولبي. قالت له روشل انك رفضت مرافقتنا. لكن طبعاً اذا كنت تساعدين والدتي...»

تردّدت، فأنقذتها كولبي من اضطرابها.

«لا تهتمي للامر سأخرج بعد قليل».

وابتسمت لها سوزان بمودة، فتدخلت روشيل لتقطع الحديث.

«هل سنمضي النهار كله هنا. اشعر بالعطش. سوزان. اريد شراباً بارداً واكثري فيه الثلج».

«حسناً يا روشيل. اسبقيني الى غرفة الجلوس. هل تريدين شراباً بارداً يا كولبي؟».

«لا شكراً. احاول العثور على بوكا».

«مهمتك صعبة. ليس من السهل الجاده».

وانتظرت روشيل ان تدخل سوزان اولاً الى المنزل لتلحق بها. فهي لم ترد ان تسمع صديقتها عبارتها الاخيرة.

«كولبي. تلعبين دور المساعدة الصغيرة اليس كذلك؟»

لم تجبها كولبي وكأنها لم تسمعها. وبعد خمس عشرة دقيقة رأت كولبي بوكا قرب الاسطبل. الفت كتابها وانطلقت كالسهم لتمسك به قبل ان يختفي! فاصطدمت بدارت الذي كان يصعد الدرج بتمهل.

«يا إلهي. عليّ منذ اليوم ان اربط جرساً حول رقبتي ينذر رنينه بقدومي، فلا اتعرّض لحادث اصطدام مرّة اخرى. هل لي ان اسألك الى اين انت ذاهبة؟»

«لألحق ببوكا. هناك درس مهم على المذياع اريده ان يسمعه».

«لا تستعجلي الامور يا صغيرتي. بوكا سيعيش طوال حياته في هذه المزرعة بين ابناء جنسه وفي محيطه الطبيعي. هؤلاء الناس انا مسؤول عنهم».

«لكنه يحتاج الى الثقافة يا دارت».

«طبعاً. وسيحصل عليها. لكنها ستكون ثقافة اجداده وابناء عرقه. بوكا خرج الى الاحراش منذ كان طفلاً في الثانية من عمره، وتعلم من الطبيعة اسرارها وخصائصها. والسكان الاصليون يعتزون جداً بحضارتهم. اسمعيني جيداً يا كولبي. لي خبرة طويلة في هذا المجال. فتسعة من عشرة لا يستوعبون ثقافة الرجل الابيض، ولا يستفيدون منها. والسبب ليس بساطتهم او انه ينقصهم

الذكاء، بل لانهم يرون سعادتهم الحقيقية في الانصهار في الطبيعة».

«ماذا تريدني ان أفعل يا دارت؟»

«كما تريدين انت يا صغيرتي. لكن لا تنسي ان بوكا ليس بطفل ابيض وان طموحاته واهدافه كلها تنبع من واقع بيئته. شجعيه على القراءة وساعديه بما تستطيعين لكن لا تحاولي ابداً فرض وجهة نظرك عليه».

ووضع يده على كتفها بحنان.

«انت طفلة طيبة يا كولبي... اخبريني الآن، لماذا رفضت الخروج من المنزل اليوم؟»

«كنت اساعد العمة بيلا في انهاء بعض الرسائل المتأخرة».

«حسناً. تعالي معي الآن. لكن اذهبي اولاً لتغيير فستانك هذا!»

«لماذا؟ الا يعجبك؟»

«بلى. لكني لا أعرف ماذا سيحدث لحرارة مايك؟»

وبرقت عينا كولبي بضحكة انثوية.

«حسناً سأعود بعد دقيقة واحدة».

«لن انتظرك أكثر من ذلك».

وعادت كولبي بعد دقائق ثلاث فقط وهي ترتدي سروالاً مريحاً، وقميصاً فاتح اللون، وعلى عنقها ربطت منديلاً حريرياً بلون شعرها.

وتفحصها دارت طويلاً.

«ما بك تنظر اليّ هكذا يا دارت. هل تتفحصني؟»

«أنا اتفحص كل النساء عادة. لكن عندما يتعلّق الأمر بك عليّ ان انتبه لنفسي».

«لا أفهم قصدك».

«ومتى ستصبحين قادرة على الفهم يا صغيرتي؟»

وفي عينيه الرماديتين تلاعبت ابتسامة مداعبة، فرفعت كولبي حاجبيها بلا مبالاة مصطنعة.

«ربما كنت افهم اكثر مما تظن فعلاً!»

وضحك وهو يتأبط ذراعها، ليمشي معها الى الاسطبل.

«كفي عن هذه الادعاءات يا صغيرتي. ما زلت طفلة لا تعرف شيئاً بعد عن

الحياة».

رآها بن عن بعد، فاحضر لها جواديهما. وكعادتها لم تنتظر كولبي ان يساعدها دارت، فاسرعت تمتطي صهوة فرسها. وانطلقا معاً. لفّهما الصمت دقائق طويلة. كانت كولبي تسترق بين حين وآخر نظرة خاطفة الى وجه دارت الاسمر، الذي كان يعبر بكل ملامحه عن سعادة الرجل الفخور بملكيته. هذه ارضه، وهذه مزرعته، وهذا قطيعه. بلاده تمتد واسعة كالبحر وفيها التحدي ذاته. كانت اولاً وأخراً عالماً للرجال بقوتها وقساوتها لكن كولبي كانت تحبها كما يحبها دارت. دماء كينغ تجري في عروقها، ومعها الاصرار على التحدي وحب الحياة. عنفوان آل كينغ كان يشع من عينيها ويظهر في حيوية حركاتها وشخصيتها. انها فعلاً ابنة عم دارت! كم كانت روشيل مخطئة، انها تنتمي الى هذه الارض وجذورها مغروسة عميقاً فيها. الم يكن العم سيروس يدعوها بابنة الشمس؟

ولاحظ دارت ابتسامتها الساهمة.

«بماذا تفكرين؟»

ابتسمت له وهي تحمي عينيها بيد واحدة.

«كنت اتذكر الاسم الذي اطلقه عليّ العم سيروس: ابنة الشمس».

وخلعت قبعتها لتتمتع باشعة الشمس تتسلل بين خصلات شعرها. واسرع دارت لاعادة القبعة الى مكانها.

«انت مزعج حقاً يا دارت! هل تظن سأموت نتيجة التعرض قليلاً لاشعة الشمس».

وقلد دارت نبرة صوتها وهو يجيب:

«انت مزعجة حقاً يا كولبي! كنت اعتقد انك تعرفين اكثر من غيرك ان التعرض لحرارة الشمس في هذه المنطقة مؤذ للغاية. واستغرب فعلاً انك لم تقدري بعد اهمية ملاحظتي. في ايّ حال انا السيد هنا وعليك اطاعة او امري».

جدية كلماته ناقضها البريق المرح في عينيه اللتين استقرتا على بشرتها.

«انت فتاة محظوظة فعلاً، لانك تملكين بشرة صافية كهذه. حمراوات الشعر معرضات عادة للاصابة بسرطان الجلد، خاصة اللواتي يتنزهن في حرّ الظهيرة

بدون قبعة».

«ربما كنت على حق».

وشدّت قليلاً على لجام سورشا، التي اسرعت الخطى تلبية لرغبة فارستها. النهار كان حاراً وجافاً كما توقعت بيللا.

ناداها دارت لتتمهل قليلاً، لكنها اصرت على المضي قدماً وهي تشعر بشبابها يكاد يتفجر حيوية في عروقها. وامام قساوة الطبيعة احست عدم الثقة بالنفس وكأنها حيوان برّي يبحث عن ملجأ بعدما كشف مكانه الصيادون.

وتركها دارت تنطلق وحيدة حتى اقتربا من القطيع، فلحق بها في لحظة.

«كنت تتصرفين كطفلة عنيدة وصعبة. اليس كذلك؟»

وشعرت كولبي وكأن قلبها يقفز من مكانه عندما سمعت صوت دارت. وانتظرت ان يهدأ خفقانه قبل ان تلتفت الى ابن عمها وعلى شفتيها ابتسامة اعتذار.

«اعتقد اني تصرفت فعلاً كطفلة. كن صبوراً معي يا دارت».

ولم تترك عيناه وجهها، وكأنه اراد ابقاء ملامحها سجينة فيها. وتململت سورشا، فربتت كولبي على ظهرها مطمئنة.

واقبل عليهما مايك من بعيد، فلوح له دارت.

« كولبي. انتظري مايك. اريد ان اتحدث الى ماغاني».

وابتعد عنها مسرعاً باتجاه القطيع. وبعد دقائق كان مايك يقف امامها مبتسماً.

«صباح الخير، آنسة كولبي. تبدين دائماً اكثر جمالاً. كيف تفعلين ذلك؟»

استراحت كولبي على صهوة فرسها، وهي تقاوم رغبة عارمة في خلع قبعتها.

«انها طبيعة الانثى يا مايك».

وانتقل مايك بنظرة من الفتاة الرشيقة، الى الفرس البنية التي احنت رأسها لتداعب العشب الطري.

«يا لها من حيوان جميل! جمالها ينبع من اصالتها. لا اعتقد اني رأيت مثل لونها من قبل. انظري الى الطريقة التي تأكل بها العشب. تبدو كسيدة ارستقراطية».

ورفعت سورشا رأسها باعتداد، وحدقت في الرجل الواقف امامها، وكأنها

تفهم وتقدر اعجابه بها.

وضرب مايك على رأسه فجأة، وكانه تذكر شيئاً مهماً.

«يا إلهي. كيف نسيت! سمعت منذ حين قصة من احد السكان الاصليين المتقدمين في السن. علىّ ان اخبر دارت فوراً بما قال. لا بد من ان الحق به بسرعة».

«ها هو دارت أت الينا».

قالت كولبي مستغربة القلق الواضح في صوته. وما ان توقف دارت قربهما، حتى قال:

«دارت. عجوز اخبرني منذ قليل بانه رأى رجلاً وامرأة يوقفان سيارتهما قرب مركز الحرس القديم».

وعقد دارت حاجبيه باهتمام قلق.

«ومتى كان ذلك؟»

«رآهما عند الشروق. لكنه لم يستطع الوصول الى المزرعة لابلاغنا الا منذ دقائق قليلة. طلبت اليه ان ينتظرك».

«حسناً. اين هو؟»

وقاده مايك الى جذع شجرة يابسة، استلقى تحتها رجل عجوز حفرت السنوات اخاديد عميقة على خديه. انحنى دارت على العجوز ودخلا في حوار باللغة المحلية، نهض بعده دارت مسرعاً.

«أمل ان نصل اليهما في الوقت المناسب. العجوز اخبرني بانه رأى الرجل يغادر سيارته، اما المرأة فيبدو انها لم تتحرك من مكانها. ان يترك المرء سيارته ليتجول على الاقدام في حرّ المنطقة النائية، وبدون ان يعرف شيئاً عن طبيعة هذه الارض، جنون قد ينتهي بمأساة. علينا ان نلحق بهما قبل فوات الاوان. من حسن الحظ ان الحرّ لم يشتد بعد، واننا نعرف مكانهما بالتحديد».

«سنأتي معك».

صرخ مايك وكولبي في آن واحد. فاصدر دارت تعليماته بسرعة.

«مايك أحضر سيارة الجيب. سنعود اولاً الى المنزل الكبير. هيّا يا كولبي».

ولم ينطق احدهم بكلمة واحدة. والسيارة تشق طريقها وسط التلال الرملية.

وعند وصولهم الى المنزل الكبير كانت بيللا تنتظرهم في الشرفة. احسّت بحاستها السادسة، التي تكتسبها كل النساء اللواتي يعشن طويلاً في المناطق النائية، ان امراً مهما حدث.

«ماذا حدث يا دارت؟»

«رجل وامرأة أوقفا سيارتهما قرب مركز الحرس القديم. سألحق بهما».

«من الأفضل ان ارافقك يا دارت».

وأسرعت عائدة الى المنزل. لكن دارت ناداها قائلاً:

«سآخذ كولبي معي يا بيللا. الافضل ان تبقي هنا، للاستعداد لاستقبالهما. انت تعرفين جيداً ما يحتاجه المرء في مثل هذه الحالة».

«حسناً. تعالي معي يا كولبي لأعطيك حقيبة الاسعافات الأولية».

والتفتت الى ابنتها سوزان التي خرجت الى الشرفة برفقة روشيل.

«سوزان. احضري وعاء من الماء، واحكمي اغلاقه».

وقفت روشيل بدون حراك، وهي تركّز كل اهتمامها على دارت.

«وأنت دارت. هل لديك مؤونة كافية من مياه الشرب؟»

«نعم. وضعتها في السيارة».

«كيف يضع الناس انفسهم في مواقف كهذه؟ وكأن لا شغل لك الا اللحاق بسائحين متهوّرين لا يقدران عاقبة استخفافهما بالتحذيرات التي لابد ان تكون قد وُجهت اليهما حول خطر التجوّل في هذه المنطقة بدون دليل».

«والحمد لله اننا لم ندخل بعد موسم الصيف».

اكتفى دارت بهذا الرد، والتفت ليساعد مايك في اعداد سيارة الجيب.

وعادت كولبي بعد قليل تحمل حقيبة الاسعافات الأولية، ووراءها بيللا تردد بصوت عال.

«الحمد لله ان الحرّ لم يشتد بعد».

جلس دارت امام مقود الجيب والى جانبه مايك وكولبي. وما ان ادار محرّك السيارة حتى ساد الصمت. لم يكن احد منهم يعرف ماذا ينتظرهم في نهاية الرحلة. ففي المساحات الرملية الشاسعة والخالية من الاشجار، يسهل على المرء ان يضيع وهو يلاحق سراباً يتلألأ عن بعد، ومياهاً وهمية يتحامل التائه على

عطشه ليصل اليها، فتهرب منه حتى يسقط تعباً فتتلاشى تماماً.

كان دارت يحدق في الطريق امامه، ويركز على قيادة السيارة، بدون ان يفضح وجهه ما يجول في داخله. وترددت السيارة فوق الارض الرملية الناعمة، وكادت الاطارات تغرق فيها، فعمد دارت فوراً الى زيادة السرعة، كي لا تدور الدواليب في مكانها. وتابعت السيارة طريقها. التوقف في منطقة كهذه يعني الموت البطيء.

وعلى بعد امتار قليلة رأت كولبي حيوان الكنغارو مستلقياً بتكاسل في ظل بعض النباتات الصحراوية. رفع رأسه بحشرية ليحدق في هؤلاء المتدخلين المزعجين الذين قطعوا عليه قيلولته. ضحك ركاب السيارة فخفت حدة التوتر داخلها.

وكانت الشمس تركض امامهم لتحول السماء الى درع من النحاس الاصفر. ولم تتمالك كولبي نفسها من التفكير في المرأة التائهة في الصحراء. هل سيتمكنون من العثور عليها في الوقت المناسب؟ وسرت في جسمها قشعريرة خوف، احس بها دارت فحوّل نظره لحظة عن الطريق ليطمئنها.

«كل شيء سيكون على ما يرام يا كولبي. الرجل العجوز اجتاز مسافة كبيرة لينذرنا بما حدث. لا تخافي سنجدها».

وتمكنوا فعلاً من العثور عليها بعد ساعة واحدة. كان الرجل في اوائل العشرينات. وجدوه هائماً على وجهه، مرهقاً، وخائفاً. أما زوجته الشابة فكانت مستلقية على المقعد الخلفي لسيارتها الصغيرة، وآثار الدموع ما زالت واضحة في الاخاديد الطويلة التي حفرتها على وجهها المغطى بالتراب.

لم ينبس احد بكلمة واحدة. لم يكن هناك ما يقولونه. بلل دارت قطعة من القماش، واخذ ينظف بها وجه ورقبة الرجل المستسلم له وكأنه طفل في الخامسة من عمره. اما كولبي فانصرفت للاعتناء بالسيدة الشابة، التي اخذت تبكي بمرارة وهي تهز رأسها بعصبية يميناً ويساراً. وعندما لم تنفع محاولات كولبي في تهدئتها قطع دارت الصمت ليقول بحزم:

«كفى. انت بأمان الآن. حافظي على ما تبقى لك من قوة».

واخذ قطعة القماش المبللة من كولبي، ليكمل المهمة بصبر. حدقت المرأة

التعبة في وجهه الاسمر الجذاب وفي عينيها تساؤل صامت. ابتسم لها، فتألقت اسنانه البيضاء لتضفي مزيداً من الجاذبية على ملامحه البرونزية.

«هل تشعرين انك احسن الآن؟»

لم تترك عينا المرأة وجه دارت وهي تهز رأسها بالايجاب.

«حسناً».

وتناول كوب الشاي الذي احضرته كولبي، ليقربه ببطء من شفتي المرأة بعد ان اسند رأسها على ذراعه.

«اشربي هذا الآن. وعندما تشعرين انك قادرة على التحرك، سنعود بك وبزوجك الى المزرعة».

واسترق نظرة خاطفة الى خاتم الزواج الذهبي في اصبعها، الذي تزينه ماسة كبيرة.

«اسمي دارتلاند كينغ. انا من كنغارا. هذه ابنة عمي كولبي. وهذا مايك فاراداي رئيس العمال».

وجال الزوجان بنظرهما من واحد إلى الآخر. وسارعت كولبي للاهتمام بالمرأة.

«سأعتني انا بها الآن يا دارت».

نهض دارت وهو يهز رأسه ايجاباً. وعاد الصمت يخيّم على المكان. الوقت ليس مناسباً الآن للاسئلة والقصص، سيتركونها حتى يتمالك الزوجان انفاسهما.

كان مايك يتفحص السيارة الصغيرة وعلى وجهه شيء من عدم التصديق والشفقة، فاقترب منه دارت.

«لن تصدق هذا يا دارت. السيّارة فارغة من الماء والزيت. ولم يجلبا معهما مؤونة كافية من الوقود ومن مياه الشرب».

«هل هناك ما يكفي من الوقود للعودة بها الى المنزل؟»

«نعم. لكني سأحاول اولاً تحرير الاطارات الغارقة في الرمل».

«حسناً. سنتحرك فور انتهائك. الحمد لله ان سوءاً لم يحصل لها. قليل من الخوف فقط».

وعندما وصلوا اخيراً الى المنزل، كانت بيللا بانتظارهم. هي ايضاً لم توّجه سؤالاً واحداً بل قادت الزوجين الى غرفة الضيوف المعدة لاستقبالها. وخيّم

السكون على المنزل الكبير.

قدم العشاء في ساعة متأخرة من المساء، وروى الزوجان للمرة الأولى قصتهما، وكيف وصلا الى هذه المنطقة النائية. كانا من نيوزيلندا. اقتصدا اشهراً طويلة ليتمكنا أخيراً من قضاء شهر العسل في قلب استراليا الميت الذي يختلف تماماً عن جزيرتها الصغيرة بقساوته وصلابته.

تجربتهما المرعبة اصبحت الآن مجرد ذكرى، فالعناية الساهرة التي احيطا بها منذ قدومهما الى المنزل الكبير، انستهما مرارة الساعات الطويلة التي ذاقا فيها طعم الوحدة والخوف والضياع.

كانت السيدة هاريسون تتألق حيوية وهي تروي تفاصيل الرحلة المأساوية. فحتى الدقيقة التي جفت فيها الحياة تماماً من محرك السيارة، كانت السيدة الشابة تنظر الى الأمر كله على انه مغامرة مثيرة ستحكيها لاحقاً لصديقاتها. احتواها العالم الشاسع الجديد بصمته وقساوته، فوقعا تحت سيطرته حتى كاد يقضي عليهما.

«كانت تجربة غنية».

وبدت السيدة هاريسون وكأنها تتوجه الى دارت وحده. اما زوجها فكان ينظر اليها بحنان، وهو سعيد لانها استردت حيويتها ومرحها. كان من الواضح ان العنصر الاهم، في الرواية التي ستقصها كاتي هاريسون لصديقاتها، سيكون الفارس الاسمر الذي انقذ حياتها.

وهمس مايك في اذن كولبي.

«اعتقد انها تغلبت على تعبها. اليس كذلك؟ بل اظن ان السيدة الشابة لن تمانع في تكرار المغامرة، في حال تأكدت انها ستجد الرجل المناسب لانقاذها. دارت رجل جذاب فعلاً!»

«لا أنكر ذلك».

احست بسحره يتغلغل في اعماقها طوال السهرة. اي امرأة تستطيع ان تقاوم كل هذه الجاذبية.

«يبدو ان روشيل غير سعيدة بعملية الانقاذ هذه. لا تحب ان يشاركها احد اهتمام دارت».

ورفعت كولبي رأسها اثر كلمات مايك لتتأكد مما يقول، فالتقت عيناها بعيني دارت، ورأت فيهما مرحاً مداعباً وشيئاً من التحدي.

بيللا وسوزان كانتا مستغرقتين في حوار مع جون هاريسون حول اختلاف الارض والطبيعة بين استراليا ونيوزيلند. وكان كل طرف يبدي اعجابه بارض الطرف الآخر، مع التأكيد على تمسكه بارضه اولاً.

وبعد تناول القهوة، القى دارت على آل هاريسون محاضرة طويلة عن مخاطر السفر في هذه الارض المتوحشة، والصعوبات التي عليها توقعها، وكيفية مجابهتها. فكثيرة هي القصص التي تروى عن اناس قضوا حتفهم لانهم لم يحملوا مؤونة كافية من مياه الشرب، او افقدهم الخوف قدرتهم على التمييز. فالذي لم يألف المساحات الرملية الشاسعة يغلبه الخوف والوحدة، والقلق. ورغم تحذيرات البوليس والسكان الاصليين يخاطر بعض السواح بترك سياراتهم عندما ينفذ منهم الماء، ويذهبون لطلب المساعدة سيراً على الاقدام. وهنا تكون المأساة.

وبعد ان انتهى دارت من حديثه، نهض ليتصل بجهازه اللاسلكي، وسيلة الاتصال الشائعة في هذه المنطقة، باصحاب المزرعة التالية ليوصيهم بالزائرين. وهم بدورهم سيتصلون باصدقائهم لتسهيل رحلة آل هاريسون. وهكذا سيكون دائماً احد ما في مكان ما يسهر على سلامتهما. وعندما سيصلان اخيراً الى بلادهما، سيصبح بامكانهما اخبار اصدقائهما انهما اجتازا قلب استراليا الميت بدون خوف او خطر.

وفي صباح اليوم التالي، وبعد أن تناولا طعام الفطور، ركب الزوجان سيارتهما المزودة بكل ما يمكن ان يحتاجانه من مؤونة، وودّعا الجميع. وقبل ثوان من تحركهما، اخرجت كيتي هاريسون رأسها من نافذة السيارة لتبتسم لمضيفها قائلة:

«هل تسمح لي؟»

رنّ صوتها طفولياً خجولاً، فأحنى دارت رأسه مبتسماً.

«طالما لا يمانع جون!»

فأسرع الزوج يقول مداعباً.

«هيا. كنت محظوظاً لانني وضعت خاتم الزواج حول اصبعها قبل ان تلتقي بك».

قبلت كاتي هاريسون خد دارت، واستلقت في مقعدها والدموع تملأعينيها. شكرها للمعاملة الطيبة التي تلقتها عبرت عنه بالدموع بعدما عجزت الكلمات عن ذلك.

وزوّدها دارت بتعليماته الاخيرة، قبل ان يبتعد عن السيارة وهو يلوح لها مودعاً. تنفست روشيل بارتياح.

«اخيراً رحلا! هل رأيتم كيف تصرفت؟ كيف تسمح لنفسها بذلك وزوجها جالس بجانبها».

فأجابتها كولبي ساخرة قبل ان تلحق بسوزان وبيللا الى داخل المنزل.

«اليس من الافضل ان تتصرف كذلك بوجوده بدل ان تنتظر غيابه!»

والتفت العائلة في غرفة الجلوس. جلس دارت قرب روشيل، واخذ ينظر الى كولبي التي كانت منشغلة عنه بالضحك وستيفن.

وهمست روشيل بصوت محمل بالمعاني الخفية.

«انهما يتفقان كثيراً برغم قصر المدة التي مرّت على تعارفهما.اعتقد انه التقارب في السن».

وسمعها ستيفن برغم استغراقه في الحديث، فلم يتمالك نفسه من التعليق بسخرية.

«كلماتك هذه تدل على قلب طيب يا آنسة تينانت».

وعاد يركّز اهتمامه على كولبي.

«أنا معجب بالطريقة التي اعتنيت بها بالسيدة هاريسون يا كولبي. هل تعرفين اني كنت احلم بان أصبح طبيباً في يوم من الأيام. لكن الظروف لم تسمح بذلك».

واستغلت روشيل هذه العبارة لتنتقم من سخرية ستيفن السابقة بها.

«حسناً فعلت. عودتك عن قرارك انقذت حياة الكثيرين»

« روشيل، روشيل. اظهري قليلاً من الاحترام للناس. لن تجدي زوجاً بهذه الطريقة».

وعضّت روشيل على شفتها السفلى وهي تحترق غيظاً. وانقذ الموقف دخول ميني المفاجيء وهي تحمل باقة من الزهور الصفراء وضعتها في اناء جميل.

وكان من الممكن ان يمرّ دخولها هذه المرة على خير، لولا ان لاحظت روشيل تسرّب بعض قطرات الماء من اسفل الاناء، فصرخت.

«لا تضعيه على المائدة. ستفسدينها».

أرادت ان تحمي ما تعتقد انه سيكون لها مستقبلاً. صوتها الآمر اخاف ميني، فاسقطت الاناء من يديها كما توقعت كولبي. وتناثر الزجاج المحطم على السجادة. اسرعت كولبي الى ميني تهدىء من روعها.

«عودي الى المطبخ يا ميني. لا تخافي لن يغضب احد منك. لم تكن غلطتك».

وخرجت الفتاة الصغيرة ترتعش خوفاً وهي تسمع روشيل تقول بغضب:

«لا اعرف لماذا لا تتخلصون من هذه الفتاة الطائشة. انها خطر متحرك».

ولم يجبها احد. انحنت كولبي تجمع الزهور الصفراء عن الارض. وفجأة تأوهت بصوت خافت، وسالت الدماء من قدمها. داست على قطعة زجاج كبيرة اخترقت احدى فتحات حذائها الصيفي.

واسرع اليها دارت بعدما لاحظ شحوب لونها. كان يغمى عليها دائماً عند مشاهدة الدم وهي طفلة. رفعها بين ذراعيه بينما كان ستيفن يربط الجرح بمنديله النظيف. وحاول ان يهدىء من روعها.

«آل كينغ كلهم شجعان».

«قلت لك سابقاً ان لكل قاعدة استثناء».

ردّدتها بضعف وهي تشعر بالاشياء تتايل حولها. وحاولت السيطرة على نفسها.

لماذا تتصرف بهذا السخف!

سألتها روشيل وفي عينيها تأنيب واضح.

«هل تتصرفين دائماً بهذا السوء لدى رؤية الدم؟»

«نعم».

هزت كولبي رأسها بضعف واستراحت على كتف دارت.

«لا تتصرفي كطفلة يا كولبي. سأنظف الجرح. هل تستطيعين تحمل ذلك؟»

اجلسها على المقعد وذهب ليحضر بعض الاسعافات الاولية من غرفة الحمام. نظرت كولبي الى منديل ستيفن المخضب بالدم، وارغمت نفسها على التصرف كانسان بالغ. لم تعد طفلة. وعليها الا تجعل مخاوف طفولتها تتغلب

عليها. عضت على شفتيها، وحاولت التفكير بامر يسعدها.

وعندما عاد دارت،عرضت عليه روشيل ان تساعده بتضميد الجرح، فرفض مبتسماً. عقدت حاجبيها استياء وانصرفت عنهما غاضبة.انها لن تحب كولبي هذه أبداً. يا لها من طفلة مدللة!

وبدأ دارت بتنظيف الجرح. كان عميقاً لكنه تمكن من وقف النزيف. ومن ثم ضمد قدم كولبي بعد ان تأكد من عدم وجود أي بقايا زجاج.

شكرته كولبي معتذرة.

«أسفة لم اتوقع حدوث هذا».

«على المرء ان يتحمل حدوث هذا».

وضحك مداعباً، وفجأة انحنى عليها ليقبل وجنتها فاحمرت كولبي بسعادة لم تعرفها من قبل.

«لماذا فعلت ذلك».

فاجابها ساخراً كعادته.

«ظننت باني ربما سأفقدك».

ولم تستطع روشيل البعاد عنهما وهي ترى عن بعد المودة السائدة بينهما.

«عزيزي دارت. الا تعتقد انه من الافضل الا ترافقنا كولبي في نزهة بعد الظهر. لا أظن انها تستطيع تحمل الرحلة.

«لن يمنعني أي شيء من مرافقتكما».

ونهضت فوراً لتثبت قولها. فضحك دارت.

«فتاة شجاعة فعلاً! ارتاحي الآن . عليّ أولاً ان أنجز بعض الأمور».

ووضع يده على كتف روشيل.

«روشيل انت تعرفين ما ستحتاجه لهذه الرحلة. على فكرة. اتصلي بوالدك واخبريه انك ستمددين اقامتك ليومين او أكثر».

واشرق وجه روشيل. اما كولبي فاضطربت وخرجت مسرعة الى الشرفة لتداري انفعالها. الألم لم تعد تشعر به في قدمها وحسب بل ايضاً في قلبها. لكنها لن تحاول ان تحلل مشاعرها الآن.

٦ ـ اشواك الغيرة

فاجأهم المغيب وهم يشقون طريقهم الى التلال الرملية. دارت وروشيل في المقدمة، سوزان ومايك في الصف الثاني، واخيراً كولبي وستيفن يتحدثان ويضحكان بصوت عال.

واشار لهم دارت بالتوقف.

«أين تريدون نصب الخيام لقضاء الليلة؟ على التلال ام في الوادي».

وأجابت روشيل و سوزان بصوت واحد.

«على التلال».

التفت دارت الى كولبي.

«الوادي. أليس كذلك؟»

كان يعرف تماماً مكانها المفضل. لكنها لم تشأ ان تفرض خيارها على الاخرين.

«اي مكان يرضيني يا دارت. اترك الخيار لك».

«سنخيم في الوادي اذن»

وضحكت روشيل لتخفي استياءها الواضح من اهتمام دارت برغبات ابنة عمه.

«حسناً. سنذهب الى الوادي».

وبعد عشرين دقيقة كانوا يضربون خيامهم قرب الينبوع الصغير في وسط الوادي. وانصرفت الفتيات الى اعداد اماكن النوم، ونصب الخيام. اما دارت ومايك فاخذا يجمعان الاغصان اليابسة لاشعال نيران المخيم.

وبعد فترة تحلقوا حول النيران يتنشقون رائحة الشواء الذي اعده ستيفن بسرعة، حتى يسكت صراخ معدته المتقلصة جوعاً.

تناولوا طعامهم بصمت وكأنهم لا يريدون تعكير سكون هذه الليلة الحالمة. احسوا براحة عميقة تتسلل الى كيانهم، فيها مزيج من الخشوع والسعادة. وفجأة انطلق صوت كولبي يغرد بحنين اغنية وطنية تعلمتها في طفولتها. شدهم صوتها الملائكي الرخيم فاصغوا باهتمام الى لحن الحب الذي تنشده للطبيعة والخير والجمال. وعندما اختفت آخر نغمة في عتمة الليل، صفق الجميع استحساناً. حتى روشيل عبرت عن اعجابها بحماس مفاجئ.

ونظر دارت إلى ابنة عمه بفخر وحنان. كم تبدو رقيقة وجميلة! لا! لن يضعف، والتفت إلى روشيل:

«ما رأيك بنزهة قصيرة؟»

«طبعاً دارت. بكل سرور».

وابتعد ببطء وهما يتسامران همساً. اخفت كولبي المها بابتسامة باهتة. وانتهز مايك فرصة جلوسها بمفردها ليقترب منها.

«صوتك رائع يا كولبي. كل شيء فيك رائع».

«هل تستعمل هذا الاسلوب دائما للتقرب من الفتيات، يا مايك؟ وسامتك وحدها كفيلة بذلك!»

واحست فجأة بجسم لين يصطدم بوجهها، ويطير هارباً. انه وطواط ليلي. ارتعدت كولبي خوفاً واشمئزازاً وامسكت بذراع مايك بحركة لا شعورية.

«يا الهي. لم يكن ينقصني الا هذا!»

«وانا ايضا لم يكن ينقصني الا هذا!»

وانحنى مايك يقبلها في شعرها وجبينها. وقبل ان تنطق كولبي بكلمة واحدة، انصرف عنها عندما سمع سوزان تناديه لمساعدتها في امر ما.

عضت كولبي على شفتيها وهي تراه يبتعد عنها بسرعة. كيف سمح لنفسه بتقبيلها؟ واحست بوجود شخص ما وراءها. فالتفتت لترى دارت يحدق فيها

بقساوة.

«ما بك هذه المرة يا دارت؟ يبدو اني لن استطيع ابداً الفوز برضاك مهما فعلت!»

ولم يحاول دارت السيطرة على غضبه، بل اجابها بحدة:

«العمل في هذه المنطقة قاس جداً، ومن الصعب العثور على عمال اكفاء يرضون العمل في ظل هذه الظروف القاسية. ومن المستحيل ايجاد شخص بمهارة مايك».

«لا افهم. ماذا تقصد؟»

وقبض على معصمها بعنف، فكادت تصرخ ألماً.

«دعني يا دارت. انت تؤلمني».

«لا تتحديني كولبي. انت فتاة جذابة، وانا لا اريد ان اخسر مايك. انا بحاجة اليه».

«لكنك لست بحاجة الي. لو فرضت عليك الظروف ان تختار احدنا، سأكون انا من يرحل. اليس كذلك؟»

«بل اتمنى ان احتفظ بكما معاً».

«لم اكن اعلم انك تربط صداقاتك بمصالحك الخاصة».

«يكفي كولبي. تعرفين جيداً ما الذي اتوقعه منك. فلننسى الأمر الآن. كان النهار متعباً».

«طبعاً. انت تأمر ونحن ننفذ...لا اتصور كيف احببتك في يوم من الايام».

«وما زلت تحبينني يا ابنة عمي الصغيرة».

«الدم لا يمكن ان يتحول الى ماء، يا ابن العم الكبير».

«هل هذا هو السبب الوحيد؟»

رفضت الاجابة، واشاحت عنه بوجهها.

«اذهبي الى خيمتك الآن. حان وقت النوم».

ولم يكد المخيم يستكين حتى افاق الجميع على هدير صاخب يقترب منهم تدريجيا. وضجت الارض بايقاع بدائي، بري، وسريع. اصغوا جيداً وما لبثوا ان

شاهدوا قطيعاً من الخيول البرية يسابق الريح باعتداد وعنفوان من لم يعرف القيود في حياته. وتوقف القطيع قرب الينبوع يروي عطشه.

وخرج القمر من وراء سحابة عابرة، ليغرق قائد القطيع بضوئه الدافئ، فشهقت كولبي وهي ترى الحصان الابيض يتألق كتمثال فضي نحتته يد فنان، رمزاً للاصالة، والقوة، والجمال.

«آه يا دارت. كم يبدو هذا الحصان خيالياً في ضوء القمر، وكأنه جزء من حلم بعيد لا يتحقق فعلا الا في الاساطير».

«اخفضي صوتك كولبي. لحظة واحدة وسيشعر بوجودنا».

ولم يكد دارت يكمل عبارته، حتى رفع الحصان رأسه يصهل عالياً لتحذير اتباعه من خطر قريب. وانحة الانسان والنار يعرفها جيداً، وحاسة الشم لديه لا تخطىء. وبجرأة وكبرياء انطلق عائداً الى التلال ووراءه القطيع يضرب الارض بقوائمه، حتى ارتعدت خوفاً من غضبه.

انتهى الحلم، وعادوا الى فراشهم.

استيقظت كولبي مع بزوغ الفجر. تثاءبت براحة والتفتت الى خيمة دارت. كانت فارغة. لا بد انه ذهب للبحث عن الحصان الابيض. تعرفه جيداً. لن يترك جواداً بهذا العنفوان يفلت من قبضته.

تسللت من مكانها بهدوء حتى لا ينتبه الآخرون. امتطت فرسها سورشا وانطلقت بها الى التلال بحثاً عن دارت. لن تجد صعوبة في العثور عليه. بين العجوز علمها كيف تقتفي الاثر جيداً في الارض الندية الحمراء.

واضطرت كولبي الى لجم فرسها عندما وصلت الى ممر ضيق يتعرج بين صفين من النباتات الكثيفة. واحست فجأة بشخص ما يرفعها بقوة عن صهوة جوادها ليضعها ارضاً. «يا الهي كولبي. الا تستطيعين ابداً مقاومة رغبة تعريض نفسك للخطر؟»

«تعمدت ذلك. المرأة قد تفعل الكثير للرجل الذي تحب، لكنها تفعل أكثر للرجل الذي تخاف».

«أسفة. لم اكن اقصد ازعاجك».

وعندما رفعت عينيها معتذرة الى وجهه الاسمر الجذاب، صرخ صوت ما في داخلها «انت تحبين دارت. انت تحبين دارت».

«لا. لم تزعجيني يا كولبي. انا خائف على سلامتك. ما زلت طفلة صغيرة».

«وانت رجل متعجرف. انا لم اطلب المجيء الى كنغارا. انت من اصر على ذلك. لكني استطيع مغادرتها في اي لحظة».

«وهل تريدين ذلك؟»

لم تجبه، فضغط على كتفها بعنف.

«ستبقين هنا الى الابد يا صغيرتي. انت جزء من كنغارا وهي جزء منك. لن تستطيعي مغادرتها ابداً».

«قد لا توافق روشيل على بقائي».

قالتها بعفوية، وندمت فوراً على الملاحظة التي افلتت منها. لكن دارت كان قد انشغل عنها فور سماعه الايقاع البري الذي اخذ يتردد صداه في الهواء.

«كولبي لدي فكرة جيدة قد تنجح. سأستخدم فرسك كطعم. انها حيوان جميل ولا بد ان تلفت اهتمام الحصان الابيض».

وابتسم لها مداعباً.

«برغم كل شيء، اثمر حضورك عن فائدة ما».

«اتمنى ذلك يا دارت».

«ابقي هنا وابتعدي عن المشاكل. هل فهمت؟»

«نعم. ارجوك دارت كن حذراً».

امتطى دارت صهوة جواده الاسود وانتظر بدون حراك اقتراب القطيع. وكما توقع الرجل لفتت سورشا الجميلة انتباه الحصان الابيض فحول مساره باتجاهها. وقبل ان يصبح قريباً بما فيه الكفاية ليشتم رائحة الانسان، خرج دارت من مخبأه كالسهم وهو يلوح بالحبل الذي لا يخلو منه سرج اي راعي بقر. ودخل حصان دارت المعركة الى جانب سيده، فانطلق يسابق الريح وهو

يصهل متحديا منافسه.

وتمكن الفارس من تطويق عنق الجواد البري برمي الحبل مرة واحدة. وما ان شعر الحصان الابيض بالقيد حتى تفجرت كل وحشيته البدائية. وقف على قائمتيه الخلفيتين يضرب الهواء بقائمتيه الاماميتين محاولا استرداد حريته. وتساقط الزبد من فمه وهو يصهل، فكان في صوته صرخة الم رددتها التلال الرملية.

واقترب منه دارت تدريجيا وهو يشد على الحبل بقوة حتى سقط القائد الابيض على جانبه مبللا بالعرق، ومشلولا بالخوف. وبعد ثوان انتفض الحيوان الاسير رافضا الاستسلام بسهولة. وظل دارت ممسكا بالحبل وهو يقترب اكثر فاكثر من الجواد الثائر. انها معركة خطرة. ضربة واحدة من حوافر الحصان قد تقتله او تشله مدى الحياة

وانطلق الحيوان الابيض في سباق مجنون، والشرر يتطاير من عينيه. وطار دارت في اثره، ممسكا بالحبل، وهو يشجع جواده على قبول التحدي الذي اختاره منافسه. السباق هذا سيحدد نتيجة المعركة. والخاسر سيكون من يتعب اولا. فانتصرت إرادة الرجل.

٧ ـ المزحة السمجة

مدّدت روشيل اقامتها بضعة ايام، لتتابع محاولات دارت ترويض الحصان الابيض او تحطيمه كما كانت تقول. ولم يكن دارت يحب استخدام كلمة تحطيم بل كان يستعمل دائما كلمتي تدريب أو تعليم الحصان اصول التعامل مع رغبة الانسان.

وفي اليومين التاليين، توافد كل سكان المزرعة لمشاهدة المواجهة العنيفة بين الحيوان المعتد بحريته والرجل المعتز بارادته. سور الحظيرة لم يكن يخلو في أي ساعة من ساعات النهار من المتفرجين. بعضهم قطع اميالا عدة ليكون هناك في اللحظة التي سيمتطي فيها الرئيس الحصان للمرة الاولى.

وضع العمال سرجا على ظهر الجواد الذي وقف يزمجر غضبا بعدما غطى بن رأسه بكيس كبير ليمنع عنه الرؤية. قوائمه الاربع كانت ترتجف بعصبية تنذر بان العاصفة التي تتفاعل في داخله لا بد وان تنفجر في الدقائق المقبلة.

ابتعد دارت عن السور حيث كان يتحدث بهدوء مع مايك، وبحركة سريعة ورشيقة قفز على ظهر الجواد الذي تشنج قليلاً استعداداً للمعركة.

وأمسك الجميع انفاسهم. لم يتحرك منهم احد. ولدقيقة طويلة اخذ دارت يتلمس عضلات الحيوان فاحسها ترتعش بعنف. اومأ برأسه الى بن، فاسرع العجوز يرفع الكيس عن رأس الحصان الذي وقف لثوان معدودة بعدما اعمته اشعة الشمس. لكنه ما لبث ان ثار لكرامته الجريحة فاخذ يركض بجنون ويرفس بعنف ليسقط اول رجل تجرأ وامتطى صهوته.

اخذوا يراقبونه يتلوى بثورة وهو يحاول ان يعض قدم دارت الذي كان

يشد على اللجام ليبقي رأس الجواد عاليا. وحاول الحيوان الذي لم ينس طعم الحرية بعد، ان يتمرد على ارادة الرجل الذي يحاول ترويضه وارغامه على الاستسلام. كيف يرضى بالسجن والعبودية، هو الذي كان يترأس قبل ايام قليلة قطيعاً من الخيول البرية، يقوده عبر التلال فاتحاً صدره للهواء الطلق واشعة الشمس. شعلة الحرية مازالت تحترق في عينيه الغاضبتين، ولن يتخلى عنها بسهولة.

ظل الحصان يركض في الحظيرة خائفاً، غاضباً وقد غطى الغبار الاحمر تاجه الفضي. تصاعد الغبار غيوما حمراء في الهواء. وعلق بأنوف كل الذين كانوا يتحلقون حول السور. لكن احداً منهم لم يتحرك من مكانه. ويبدو ان احداً منهم لم يكن حتى يبالي بالغبار. الاثارة كانت تتألق على كل الوجوه. وتعالت اصوات المواطنين الاصليين العالية النبرة تشجع الرئيس وتؤيده في معركته.

الفتيات ربطن مناديلهن الملونة حول وجوههن، ما عدا كولبي التي سقط منديلها عن وجهها فلم تقم بحركة واحدة لاعادته. كانت مستغرقة تماماً في التحدي القائم بين الرجل والحصان.

دارت من امهر الفرسان فعلاً. يتوقع رد فعل الفرس حتى قبل ان يقوم بها. مرونته، ورشاقته، وصلابته لا يمكن ان يضاهيها امهر الفرسان المعروفين بضربتهم على ترويض أكثر الجياد تمرداً.

كان دارت يجلس مستقيماً على سرجه، وهو يحاول ان يرغم الحصان المتعب على القيام بحركات اسرع، ترهقه وتجبره على الاستسلام. وفعلا خفف الجواد من رفساته القوية التي يمكن ان تقضي احداها بسهولة على حياة اي رجل يستخف بها. وتدريجيا هدأ فاخذ دارت يتحدث اليه بهدوء وحنان وهو يربت على عنقه المبلل بالعرق. وانتهت المعركة.

اقتربت روشيل من السور فور نزول دارت عن جواده. كان وجهها الاسمر الجذاب يشع اعجاباً.

«كنت رائعاً يا دارت!»

وقف ينظر اليها بشرود، ووجهه الوسيم لا يعبر عن شيء.

«لا أحب هذا العمل يا روشيل. لكنه ضروري».

ورأت كولبي روشيل تلف ذراعها حول ذراع دارت، فأشاحت بوجهها وهي تحاول ان تكبت هذا الاحساس المفاجيء والغريب الذي انتابها وجعلها تشعر بمزيج من الغضب والحزن. وسمعت ضحكات روشيل ترن على بعد امتار قليلة منها، فقررت ان تتجاهل الامر. بيللا تنتظرها في المنزل. من الافضل ان تركز افكارها حاليا على العمل. في الصباح طلبت منها عمتها ان ترسل برقية تهنئة لاحدى قريباتها في مدينة ادبلايد، وذلك بمناسبة عيد ميلادها.

اغتسلت كولبي من الغبار العالق بها، قبل ان تذهب الى المكتب الصغير حيث وضع جهاز الارسال. كانت الغرفة صغيرة مليئة بخرائط كبيرة تمثل منطقة القناة، ومقاطعة كوينزلاند، وجنوب استراليا، والمناطق الشمالية. الجدران كانت غارقة في سيل من رماح واللوحات البدائية. ووراء المكتب الكبير تدلى جلد تمساح انعكس عليه ضوء النهار المتسلل من النافذة العريضة. ابتسمت كولبي بحنين وهي تحدق الى جلد الحيوان الميت. اصطاده دارت في مزرعة عمه، الواقعة في المناطق الشمالية. اصطاده في الثانية عشرة من العمر. واصرّ العم سيروس على ارجاع الجلد معه الى كنغارا. وفور وصوله الى البيت الكبير استغل الحيوان الميت ليدبر لرئيس عماله مقلباً يشهده كل من في المزرعة. وفي احدى الامسيات، وبينما كان رئيس العمال عائداً الى منزله من سهرة متأخرة، رأى الرجل امام بابه تمساحاً يتربص به. اصابه الهلع وكاد يطير الجلد بوابل من الرصاص لولا تدخل بعض العمال الذين وضعهم سيروس كمينٍ هناك لمراقبة المشهد المضحك. وعندما هدأ رئيس العمال اخيراً أكد ان هذه الحادثة سرقت من عمره عشر سنوات. وضحكت كولبي، كما كانت تفعل دائماً كلما وقع نظرها على الجلد. سكان المزرعة ما يزالون يتندرون حتى اليوم بالمقلب.

واجتازت كولبي الغرفة لتجلس امام جهاز الارسال. وعندما وضعته على الموجة التي تريد، سمعت صوت رجل يقول:

«إذا لم يكن هناك من نداء طبي، اتركوا المجال للرسائل الآتية من مزارع ر. ج. ب. ، و ف. ج. ك. ، و ي. ل. م. ، و ك. ج. ر. ».

فاجابه صوت امرأة «هيا يا جيم». وعرفت كولبي صوت نولا ريتشموند، جارتهم من مزرعة ريتشموند التي يشار اليها باحرف ر. ج. ب. وقرأ الرجل برقية حب طويلة وصلتها من زوجها الموجود حالياً في اديلايد في رحلة عمل. حاولت كولبي ان لا تسمع الكلمات. من المضحك حقاً، ان تشعر في هذه المناطق النائية، انك اقرب الى جارك الذي تفصله عنك مئات الاميال، مما لو كنت تجاوره في شقة في المدينة.

ومرّت ساعات الصباح بسرعة، وكولبي تستمع الى مشاكل المزارع الكبيرة المتفرقة في هذه المنطقة الشاسعة. رؤوساء عمال يطلبون موافقة رؤسائهم الغائبين على امر ما. امهات ترسلن برقيات حزينة تطلبن فيها من بناتهن العودة الى المنزل بعد اجازة طالت في المدينة، ومشاكل عائلية تحلّ على الهواء. وتخلل كل هذه الرسائل نداء طبي من ام تستنجد بالطبيب المتجول لمعالجة طفلها المريض.

وتنبّهت كولبي فور سماعها لاشارة كنغارا، اي احرف ك. ج. ر. ارسلت البرقية التي تريد، واقفلت الجهاز.

وقفت ونظرت حولها باهتمام قبل ان تتوجه الى مكتب دارت، المجاور لغرفة الارسال. حرّم ابن عمها دخول مملكته الخاصة هذه على كل أفراد العائلة، ولم يستثني روشيل من القاعدة. وكم تشبهه هذه الغرفة! ينبع منها انطباع بالقوة. كان من الواضح أنها تخص رجلاً. على احد الجدران، كان هناك رسم زيتي كبير للعم سيروس، يحمل بصمات وشخصية الفنان الذي رسم العمة راشيل، اي صاحب اللوحة المعلقة في غرفة الجلوس.

وتسلقت عينا كولبي القامة الطويلة البارزة العضلات. كان العم سيروس شديد الوسامة، في عينيه وفمه تعبير ينم عن شيء من القسوة والتسلط وجهه يدل على انسان انشأ لنفسه امبراطورية صغيرة في منطقة نائية... رجل عرف كيف يجري الصفقات وينفذها. العم سيروس يشبه والدها، لكن تعبير الوجه كان يختلف تماماً. والدها اكثر رقة وحناناً.

في يوم من الايام سيعلق رسم دارت هنا ايضاً. لكن اين سيضعون رسم روشيل؟ ما من شك انها الزوجة المناسبة لرجل من آل كينغ. ارتعشت كولبي برغم حرارة الغرفة. دارت ايضاً سيكون زوجاً ممتازاً. وسامته الجذابة، التي توحي بالكثير من الرجولية، اكتسبها عن عائلة والدته. لكن طابع آل كينغ المميّز كان واضحاً في شخصيته وتصرفاته.

لكن ماذا عن روشيل؟ تباً لروشيل. لاحظت انها كانت تتكلّم بصوت عال. ضحكت لانتفاخها وخرجت من الغرفة على رؤوس اصابعها تلاحقها نظرات العم سيروس.

في الرواق دقت الساعة تشير الى الحادية عشرة. ما زال امامها ما يكفي من الوقت لتلحق بدارت وبن، كانا يعملان في الحظائر على ترويض ما تبقى من الخيول البرية. رآها دارت مقبلة، فاقترب لملاقاتها.

«بن اختار الفرس الصغيرة لبوكا. انها حيوان اصيل. العجوز يعرف كيف يختار الجواد الاصيل. لا احد يضاهيه في هذا المجال».

«ولا حتى دارتلاند كينغ العظيم؟ كنت أعتقد ان لك شهرة واسعة في هذا المجال».

ابتسم لها، وأخذ يتابع محاولات بن لترويض الفرس الصغيرة. والتفت فجأة الى كولبي ليسألها باهتمام:

«كنت أول من غادر الحظيرة هذا الصباح. ألم تعجبك الطريقة التي روضت بها الحصان الأبيض؟»

اراد مداعبتها، لكنها اجابته بجدية لم يكن يتوقعها منها:

«لا اعرف. يحزنني حقا رؤية اي كان يحاول تحطيم حرية كائن حي».

لمعت عيناه كقطعتي فضة وهو يحاول ان ينفي التهمة عنه.

«لم احاول تحطيمها. انا لا احطّم الخيول. انا...»

قاطعته كولبي ساخرة، وهي تحاول ان تقلّد طريقته في الكلام.

«اعرف يا سيد دارت. تريد تدريبها على اصول التعامل مع الانسان. وانت ماهر يا سيد دارت».

«اعتقد يا آنسة كينغ انك انت ايضاً بحاجة لمن يعلمك اصول التعامل مع الناس».

«اكون شاكرة لك لو قمت انت بهذه المهمة يا استاذ دارت».

وكاد الحوار يتحوّل الى مشادة عنيفة، لو لا اقتراب بن الذي رفع قبعته ليحيي كولبي بابتسامة عريضة.

«صباح الخير آنسة كولبي».

والتفت الى دارت يسأله بجدية:

«هل انت مشغول يا سيدي؟»

«لا يا بن، ما بك؟»

«احتاج لمساعدتك. لا استطيع السيطرة على الفرس. يبدو انها حمديدية الارادة».

«حسناً يا بن. علينا اولاً محاصرتها في زاوية محددة. كولبي انزلي عن السور، وابتعدي قليلاً عن الحظيرة».

واحسّت كولبي بشخص ما يقف وراءها.

«اهلاً بوكا. جئت لترى فرسك. أليس كذلك؟»

أجابت عينا بوكا حتى قبل ان يتفوه بكلمة واحدة.

«نعم. كم هي جميلة... فرسي!»

والتفت اليه جده محذراً.

«لا تقترب من الحظيرة يا صغيري. ارجوك ان تبقى قرب الآنسة كولبي. انها ليست فرسك بعد».

وأمسك بوكا بيد كولبي، وعيناه لا تفارقان الفرس السوداء.

تمكن الرجلان من محاصرة الفرس في إحدى الزوايا، لكن قبل ان يتمكن بن من رمي الحبل حول عنقها، ركضت نحو السور تحاول تحطيمه بقوائمها. ورمى دارت حبله بدقة فاحاطت العقدة العريضة في أخره بعنقها. اسرع بن لمساعدته في شد الحبل. وسقطت الفرس الغاضبة بثقل على جانبها تئن لهزيمتها. ظل بن ممسكا بالحبل، بينما اقترب دارت منها وهو يتكلم ببسطه وهدوء

ليطمئن الفرس الخائفة. نظرت اليه بهلع، فمد يده يربت على ظهرها بحنان حتى هدأت تدريجياً.

«هل انتهى الامر؟»

كان بوكا قد أغلق عينيه حتى لا يشاهد عذاب الفرس.

«نعم يا بوكا. افتح عينيك. كل شيء على ما يرام الآن».

واقترب منهما دارت.

«تعال يا بوكا. الا تريد التعرف على فرسك الجديدة؟ وانطلق بوكا في رقصة بدائية، يعبر بها عما عجزت الكلمات التعبير عنه. ولم يتوقف الصغير عن رقصه حتى سمع صوت جده الآمر.

«اهدأ، يا صغيري، اهدأ متى تكف عن استعمال الطريقة الصاخبة للتعبير عن فرحك؟»

وهدأ بوكا فوراً. وبخفة تسلل الى فرسه ليراقبها بمزيج من الحب والشعور بالملكية.

«فرسي. انت لي... لي وحدي.»

ابتسمت كولبي لحماسه، وراقبته لبضع دقائق قبل ان تعود الى المنزل. عليها ان تنجز ما تبقى عليها من مهام قبل موعد الغداء.

لازمت بيللا غرفتها، لانها كانت تشعر بصداع قوي. ولذا تناولت الفتيات طعام الغداء بمفردهن في الشرفة. أمضت روشيل و سوزان معظم ساعات الصباح تتنزهان في احضان الطبيعة. ابتسامة سوزان الرائعة شملت هذه المرة كولبي أيضاً.

«كنت اتمنى لو رافقتنا في هذه النزهة يا كولبي. كان الصباح رائعاً. ماذا فعلت كل هذا الوقت؟»

«كنت مع دارت و بن في الحظائر. اختار بن فرساً سوداء رائعة لبوكا. كم كان سعيداً بها!»

وقطّبت روشيل حاجبيها استياء.

«ماذا! فرس لبوكا! ستفسدون هذا الصبي بمعاملتكم الطيبة له. لن يعرف حدوده بعد الآن. على دارت ان يكون اكثر قسوة معه. انه مجرد صبي من السكان الاصليين».

قاطعتها كولبي بغضب.

«بوكا سيصبح قريباً من امهر رعاة البقر، تماماً كجده. من صالح دارت ان يبدأ باكراً. كنت اصغر من بوكا عندما حصلت على جوادي الأول».

ولم تحاول روشيل اخفاء نفورها.

«العائلة كانت طيبة في معاملتها لك ايضاً، وما زالت حتى الآن».

استاءت سوزان من هذا الهجوم الواضح على قريبتها، لم تسمع روشيل تتكلم بمثل هذه العدوانية من قبل.

« كولبي تبقى في كل الاحوال ابنة عم دارت. ترعرعت على ارض كنغارا قبل مجيء اي واحد منهم. ودارت يحبها كثيراً».

وضعت كولبي فنجان القهوة بحذر على الطاولة، واستأذنت بالانصراف.

«سأذهب لأغسل شعري من الغبار الذي علق به في الحظائر».

وفوجئت كولبي عندما استوقفتها سوزان.

«تعالي معنا يا كولبي. مايك وعدنا بزيارة الوادي انه ينتظرك».

«شكراً سوزان. اعتقد انكما ستستمتعان بالرحلة اكثر بدوني».

وغادرت المكان، تاركة وراءها صمتا ثقيلاً، قطعته روشيل بعد لحظات.

«لا تقولي انك وقعت تحت تأثير الاعيب الآنسة كولبي كينغ يا سوزان؟ كنت اظنك اذكى من ذلك!»

«لا افهم ماذا تقصدين يا روشيل؟»

وتفحصت سوزان صديقتها بعبوس، ثم شغلت نفسها بابريق القهوة.

«لا تفسدي هذا النهار الرائع يا روشيل. كنت قاسية مع كولبي، عندما تتعرفين اليها اكثر ستجدينها في غاية اللطف».

قطبت روشيل حاجبيها قبل ان تجيب:

«أنا أنضج منك، يا عزيزتي سوزان، ولي خبرة اوسع بالناس وبالحياة. كولبي فتاة موارية ستكتشفينها مع الأيام. اسمعي نصيحتي يا صغيرتي وابتعدي عنها».

وبلعت سوزان ريقها بصعوبة. لا ترغب بمجادلة روشيل، اعز صديقاتها. ستنسى الموضوع. لا بد ان تغير روشيل رأيها قريباً. وقدمت سوزان لصديقتها فنجاناً من القهوة فتناولته مبتسمة.

«شكراً، سوزان. نستطيع الآن ان نتناول قهوتنا بسلام».

كادت كولبي تصطدم بروشيل وهي تنزل درجات المنزل جرياً. ولاحظت روشيل ان كولبي ترتدي ثياب الفروسية. ارادت ان تقول شيئاً، لكنها غيرت رأيها فجأة، فمرت بصمت أمام كولبي وذهبت لتجلس في الشرفة.

وعضت كولبي على شفتها السفلى. آه لو تعود روشيل الى منزلها! من المستحيل الشعور بالامان والراحة وهذه الفتاة تسكن معها تحت سقف واحد. واخرجها من شرودها صوت روشيل البارد.

«هل انت ذاهبة الى الحظائر يا كولبي؟»

توقفت كولبي وهي تظلل عينيها بيديها لتقيهما لهيب الشمس.

«نعم روشيل».

« دارت يريد حصانه الأسود. هل تسرجينه لي يا عزيزتي. تأخرت عن الموعد».

وللحظة لم تصدق كولبي ما سمعت. سمرتها المفاجأة في مكانها. لم يكن دارت يسمح لاحد بلمس حصانه المفضل. وتمكنت كولبي من النطق اخيراً.

«ماذا؟ انت ستمتطين حصان دارت الأسود؟»

«طبعاً. ومن يستطيع ذلك غيري! كنت اتمنى لو كان بامكانك القيام بهذه المهمة عني».

واشتعلت في عيني كولبي ثورة مكبوتة.

«طبعاً بامكاني القيام بهذه المهمة. اعرف كيف اتعامل مع الخيول، مثلك تماماً».

بل أفضل منك! رددت كولبي في نفسها.

«حسناً يا كولبي، ان كنت تظنين انك قادرة على ذلك».

واسترخت روشيل بتكاسل على سور الشرفة.

«ستوفرين عليّ الكثير من الوقت يا عزيزتي. سبقتني سوزان الى الوادي»

«انها مجرد خدمة بسيطة يا روشيل. استمتعي بنزهتك.»

«وأنت ايضاً»

وابتعدت كولبي بدون ان تلاحظ البريق الساخر في عيني روشيل. ولم تشك كولبي بنوايا الضيفة العزيزة الا حين انطلقت بالحصان تسابق الريح.

دارت حذرها مراراً الاّ تقارب جواده، وهو ليس من الرجال الذين يسامحون الخصيان. لا . لا يمكن ان تخدعها روشيل الى هذه الدرجة. دارت يريد حصانه، وهو يعرف تماماً انها تفوق روشيل مهارة في ركوب الخيل، والبرهان ان جواد دارت لم يبالغ ابداً وجودها على ظهره.

وجالت كولبي التلال بحثاً عن دارت. فكان هو اول من رآها. وبلمحة حملها بين ذراعيه لينزلها بقسوة عن الحصان. وعرفت فوراً، من بريق الغضب في عينيه، انها كانت ضحية لعبة شريرة. انصرف عنها دارت ليهدىء من روع الحيوان الثائر، فتعلقت عيناها بوجه بن الذي وقف قريباً منها يتابع المشهد بقلق. واحس العجوز بحاسته السادسة انه لن يستطيع ان يفعل شيئاً لمساعدتها في هذا الوقف، فابتعد ليجنبها احراج وجوده.

اغلقت كولبي عينيها وهي تحاول جاهدة السيطرة على الذعر الذي بدأ يتسلل الى كل كيانها. كم يبدو دارت مخيفاً في هذه اللحظة. انه من الرجال الذين يرهبهم الجميع، وينفذون اوامرهم بسرعة.

وفتحت كولبي عينيها احست بيدي دارت تضغطان على كتفيها بقسوة مؤلمة.

«أيتها البلهاء الصغيرة! هل تظنين انني اريد مأساة اخرى على ارض هذه المزرعة. الم احذرك من الاقتراب من جوادي الاسود؟ لماذا لم تلتزمي بأوامري؟»

واخذ يهزها بعنف، وقد اعماه الغضب. انهمرت دموعها وهي تحاول ان تدافع عن نفسها.

«لكن يا دارت».

«لا أريد ان اسمع كلمة واحدة. استطيع تحطيمك يا كولبي. لا تتحديني اكثر من ذلك».

وتقلصت عضلات وجهه وهو ينظر اليها.

«هل نسيت اليوم الذي عادوا به بامي الى المزرعة! أعتقد انك تتذكرين المشهد جيداً. انت مثلها تماماً. لا تعرفين حدود قدراتك كامرأة».

وعاد يهزها بعنف. غضبه العارم لم تشهد له مثيل من قبل. بلى... مرة واحدة. هكذا كان يبدو العم سيروس عندما خرج ليقتل الحصان الذي اودى بحياة زوجته.

وقبل ان تعرف كولبي ما جرى لها، وجدت نفسها مستلقية على ركبتي دارت الذي اخذ يضربها بقوة كطفلة صغيرة. تدفق الدم الى رأسها، وغلى في دماغها. لم يكن يهمها ان تموت في تلك اللحظة. الدموع تحترق في عينيها، لكنها لن تدعها تنهمر.

يا له من رجل متوحش! كيف يتجرأ على ضرب امرأة! انها تكرهه...نعم تكرهه... طبعاً تكرهه!

ولم تعرف كولبي انها كانت تصرخ الكلمات عالياً. ساعدها دارت على الوقوف بعدما هدأ قليلاً.

«سواء كرهتني ام لا، لن تنسي هذا الدرس يا كولبي. واتمنى ان لا تعيدي الكرة. اكتشفت ان الافعال لها تأثير أكبر عليك من الكلمات».

«يا إلهي!»

وغرزت كولبي اظافرها في راحة يدها لتمنع نفسها من صفعه.

«كم أكرهك يا دارت. كيف تجرأت على ضربي ايها الثور الهائج! ولماذا؟»

وانهمرت دموعها غزيرة وهي تردد بعصبية.

«كيف تجرأت... كيف تجرأت!»

«سأتجرأ على فعل اي شيء طالما انت في رعايتي».

«لن أبقى في عهدتك بعد ما حدث. انا غير مرغمة على تحمل هذا النوع من المعاملة. تستطيع ممارسة سيطرتك على كل من حولك، لكنك لن تتمكن مني

ابدأ ايها الوحش البري».

ورفعت يدها لتصفعه، فكان اسرع منها.

«كفي عن الصراخ يا كولبي. لن اعتذر عما حدث. انت ارغمتني على تأديبك. الا تعتقدين ان الدرس الذي تلقنته الآن يبقى أفضل من ان تكسري عنقك على المدى الطويل».

وحاولت كولبي الافلات من قبضته لكن بدون جدوى. الدموع في عينيها اعمتها عن رؤية وجهه الشاحب.

«ارجوك دعني اذهب يا دارت. لا تذلني أكثر. لو كنت رجلاً لقتلتك فوراً».

وعكس ما توقعت، ضحك دارت وكأنها تمازحه.

«لو كنت رجلاً يا كولبي لما حدث كل هذا».

وعندما تركها اخيراً، تعلقت عينا كولبي بآثار اصابعه التي تركت خطوطاً حمراء على بشرتها الرقيقة.

« كولبي. آه يا كولبي. كيف اتصرف معك؟»

وراقبها لحظات بصمت، ثم التفت لينادي بن. فظهر العجوز بعد ثوان قليلة.

«عد بالآنسة كولبي الى المنزل يا بن. سأهتم انا بالحصان الأسود».

وقفزت كولبي على صهوة الجواد بدون ان توجه نظرة واحدة الى دارت الذي وقف يراقبها بصمت.

وعلى بعدامتار التفت بن الى رفيقته الشابة ليعاتبها بحنان.

«لماذا فعلت ذلك يا آنستي. كان السيد دارت محقاً في غضبه».

وانهمرت دموع كولبي مجدداً.

«حتى انت يا بن!»

ومدّ العجوز يده ليربت على كتفها، محاولا التخفيف عنها.

«اهدأي يا صغيرتي. لم اكن انوي جرح احاسيسك بكلماتي. عرفتك منذ كنت طفلة صغيرة. لكني لا افهم ما الذي دفعك الى تحدي ارادة السيد دارت. انت تعلمين جيداً ان هذا الحصان بالتحديد اقوى من ان يخضع لارادة امرأة».

واكمل العجوز حديثه يعاتبها بصوت حنون:

«الا تذكرين اليوم الذي قضت فيه سيدة كنغارا حتفها؟ كانت سيدة عظيمة، لكنها كانت شديدة الاعتداد بارادتها وصلابتها. انا نفسي حذرتها من ركوب جواد السيد سيروس! لم تسمع. لن اتكلم الآن عن الماضي. ضعي نفسك في مكان السيد دارت. كان خائفاً على سلامتك، ولذا كان غضبه بهذه الشدة. انه يحبك كثيراً يا صغيرتي. فيك يجري الدم ذاته».

وعضّت كولبي على شفتها لتوقف ارتعاشتها.

«لا أعتقد انه يحبني يا بن. بدأ يضيق بالمسؤولية التي ألقاها والدي على عاتقه».

«لا . لا تقولي هذا يا صغيرتي. انت من دمه ولحمه».

ولم تمالك كولبي اعصابها اكثر من ذلك فانفجرت قائلة:

«انها روشيل. الآنسة تينانت! هي سبب كل ما حدث. قالت لي ان دارت يريد جواده. فتبرعت بتأدية المهمة عنها».

«الآنسة تينانت! لكنها تعرف جيداً ان دارت حذر ايا كان الاقتراب من حصانه. هل اخبرته بحقيقة ما جرى؟»

«لا. وارجوك يا بن ان لا تخبره انت ايضاً بما حدث. يكفي ما جرى حتى الآن. كنت ضحية مزحة سمجة. لا ادري كيف صدقتها! يا له من نهار مزعج».

وابتسم العجوز وهو يقول:

«اعتقد ان الآنسة تينانت لا بد ان تعود الى منزلها قريباً».

وعادت الحياة الى عيني كولبي وهي ترد:

«اتمنى ذلك يا بن. آه كم اتمنى ذلك!»

٨ ـ الصفعة

صباح اليوم التالي استيقظت روشيل باكراً، ونزلت الى الحديقة لتختار مجموعة كبيرة من الزهور، ستنسقها لاحقاً بفن متـرف ومعقد تعلمتـه خلال دراستها المكلفة في احدى اشهر المدارس الاسترالية.

وكانت سوزان تلاحقها كيفما توجهت، لتستفسر منها اكثر عن مغريات الحياة في المدينة، وعن كل الاشياء الرائعة التي فعلتها ورأتها روشيل.

ولم تعد كولبي تستطيع تحمل المزيد، فتركتها لتساعد بيللا في الاعتناء بحديقة الازهار الصحراوية، مكانها المفضل. معظم الغرسات كانت تتفتح في النهار وبعضها في الليل، فتتألق في احتفال رائع من الألوان يتماوج بين الاحمر والوردي والاصفر والاخضر والابيض.

ووقفت كولبي قرب بيللا المنحنية على مجموعة جديدة من الشتلات اليانعة تغرسها وتسقيها بحب.

«هل استطيع مساعدتك يا عمتي؟»

«طبعاً يا عزيزتي. هذا نوع جديد يحتاج الى عناية خاصة جداً، صحيح انـه يتطلب وقتاً طويلاً ليفرج عن زهوره لكن النتيجة تكون رائعة فعلاً وتستحق الجهد المبذول لها. يمكنك ريّ الغرسات التي انتهيت من زرعها. انت تعرفين طبعاً ان هذا النوع من النبات لا يحتاج الى الريّ الا عند زرعه وتفتحه. وبعد ذلك يترك بدون عناية».

«وأين اضع الماء؟ على جذور الغرسة فقط؟»

«سأعلمك».

ووقفت بيللا تنفض التراب عن ركبتيها.

«انها عملية مهمة جداً».

وتناولت بيللا وعاء الماء لترش منه قليلاً على الجذور وعلى التربة المحيطة بها. ثم نثرت قليلاً على الاوراق الخضراء.

«هل عرفت كيف الآن؟ عليك ان تعامل النبات بحب ورقة. واذا اكثرت من الماء ستؤذينها».

وعملتا معاً بصمت في جوّ عائلي ودي حميم. فبرغم الفارق الكبير في عمريهما، توطدت بينهما محبة عميقة وصداقة هادئة. وبين وقت وآخر كانت كولبي تلمح في عيني بيللا استسلاماً حزيناً، جعلها تشعر نحوها بحنان اكبر. من المؤسف حقاً ان العم سيروس لم يترك لارملته مبلغاً كافياً يؤمن لها الاستقلال المادي. صحيح ان بيللا ليست بحاجة الى المال الآن، لكن الأمر يختلف عندما يعرف المرء ان له رصيداً خاصاً يعتمد عليه.

وعقدت كولبي حاجبيها عندما فكّرت بدارت. لقد تجنبها بالامس كمن يتجنب مرضاً معدياً. لا، فلتقل بالأحرى انها هي التي تجاهلته، لانه لم ينتبه لها ابداً. كان مشغولاً بشرح تحركات النجوم لروشيل لاكثر من ساعة.

وفجأة ظهر بوكا من وراء سور الاعشاب، فافزع السيدتين المستغرقتين في عملهما وافكارهما. رأى الصبي شعر كولبي الناري عن بعد فجاء ليسليها. ابتسمت بيللا لكولبي. صحيح ان رفقته ممتعة وطريفة لكنه سيعيق عملها ايضاً. وأخذ بوكا يركض من واحدة الى اخرى وهو يوجه ارشاداته ونصائحه التي كان من الافضل تجاهلها.

وفي زاوية بعيدة من الحديقة كان النحل يطير فرحاً بين الزهور ليمتص رحيقها بنهم. وكانت نساء المنزل الكبير يتجنبن تلك الزاوية في هذه الفترة من النهار خوفاً من غضب النحل. اما بوكا فلم يكن يستطيع ذلك برغم الانذارات المتلاحقة التي وجهت اليه بهذا الصدد. ولم يقتصر نشاط بوكا على

مراقبة النحل بل كان يحاول التقاط بعضها ليجففه لاحقاً ويأكله. فهذا هو الطعام المفضل لدى السكان الاصليين. وينست بيللا من استدعائه بعد النداء الرابع.

«لا ادري لماذا اقلق عليه. يبدو ان النحل لا يحاول ايذاءه. لو ذهبت انا الى هناك لهاجمني بدون رحمة».

وتوقف بوكا عن لهوه عندما خرجت روشيل الى الشرفة وهي تصفق عالياً وتناديه بلهجة آمرة.

«تعال هنا أيها الصبي الأسود!»

رنت الكلمات مزعجة في الهواء، فلم تتمالك بيللا نفسها من التعليق قائلة:

«يا إلهي. اتمنى لو تتجنب روشيل استعمال مثل هذه التعابير. انها تجرح احساس بوكا عندما تناديه بالصبي الاسود. السكان الأصليون يعتدون بلونهم وبحضارتهم».

وتجاهل بوكا النداء وكأنه لم يسمعه. نزلت روشيل الدرجات القليلة لتقترب من بيللا.

«احاول العثور على ميني. اعتقدت ان الصبي الصغير يعرف مكانها. طبعاً لن يخبرني. كلهم يتكاتفون ضدنا».

نظرت اليها بيللا، وبحركة لا شعورية حاولت ترتيب خصلاتها الفوضوية. لا تعرف لماذا يشعرها وجود روشيل بانها امرأة متقدمة في السن وسيدة مهملة لمظهرها العام.

«وماذا تريدين من ميني؟»

لوت روشيل شفتيها باستياء واشمئزاز.

«كسرت اناء الزهور واختفت كعادتها».

«لا تقلقي روشيل. اعتدنا على ذلك».

فقطبت روشيل حاجبيها.

«اعتقد انه يجدر بك معاقبتها».

زمت بيللا شفتيها ولم تجب. فالتفتت روشيل لتبحث مجدداً عن بوكا.

«أين ذهب الشحاذ الصغير؟»

«اسمه بوكا».

قالتها كولبي بحدة وانصرفت الى ري الغرسات. لكن روشيل اصرت على مضايقتها مجدداً.

«وهل لاسمه أهمية؟»

تدخلت بيللا بحدة فاثارت استغراب الفتاتين.

«طبعاً يا روشيل. انا اعتقد ان اللياقة لا تقتصر على فئة معينة من البشر. من الواجب ان تكون معاملتك طيبة مع الجميع».

احست كولبي بسعادة غامرة لان بيللا اختارت الوقوف الى جانبها. اما روشيل فتلون وجهها بحمرة الغضب. ترددت قليلاً، لكنها عادت لتهاجم كولبي بطريقة اخرى.

«اريد موافقتك يا بيللا على الطريقة التي نسقت بها الزهور. طبعاً عندما يتسنى لك الوقت لذلك. امضيت وقتاً طويلاً في ترتيبها، واعتقد انها ستعجبك. فهي تختلف تماماً عن الاسلوب الفوضوي الذي يستعمله بعض الناس».

ونظرت الى كولبي بسخرية. وانقذ الموقف المتفجر، صوت سوزان الذي وصلهن مرحاً من الشرفة.

«تعالي يا امي. لابد ان تري ماذا فعلت روشيل».

وكادت بيللا تصرخ انزعاجاً! كيف استطاعت روشيل ان تكسب كل هذا الحب والتقدير من ابنتها! ربما يعود ذلك الى حاجة سوزان الى رفيقة. وروشيل ذكية فعلاً في تعاملها معها.

اليوم تشعر بيللا بنفسها متعبة مسنة، يغلفها خمول شديد يسبق عادة حالات الصداع التي صارت تنتابها أكثر فأكثر.

وابتسمت بيللا لكولبي وحاولت ان تضع في عينيها كل محبتها لها قبل ان تنصرف برفقة ضيفتها. وتابعتهما كولبي بنظراتها وهي تعض على شفتها

السفلى. روشيل لا تطيقها، وسوزان تبدي تجاهها لا مبالاة واضحة. ودارت متضايق منها. فماذا بقي لها بعد ذلك؟

وايقظها من شرودها ضجيج بوكا الذي كان يتمرّغ على العشب قريباً منها. احسّ الصبي بحزنها فحاول جهده التخفيف عنها بحركات مضحكة. جاء برفقة صديقه كولبار جو لتسليتها. وجو هذا لم يكن الا طائراً بريّاً من نوع الامو (طائر استرالي يشبه النعامة لكنه اصغر منها بقليل) لم يعرف احد كيف تمكن بوكا من تحويله الى حيوان اليف ولا كيف اصبحا من اقرب الاصدقاء.

وفعلاً تمكن الصغير من رفع معنوياتها، فشاركته ضحكه ولعبه.

«ما رأيك في نزهة يا بوكا؟»

واشرق وجهه على الفور.

«طبعاً موافق يا آنستي. سأدلك على امكنة جديدة رائعة الجمال».

وانطلقا معاً على ظهر سورشا. ولم تتوقع كولبي ان تكون الرحلة من اروع واغرب ما قامت به حتى الآن. اخذها بوكا الى التلال الحمراء، المليئة بالمغارات الصغيرة، والتي يعتبرها السكان الاصليون ارضهم المقدسة. عندما كانت طفلة، كانت كولبي تخاف المرور في هذه المنطقة ليلاً. هناك شيء ما ينبع منها يجعل الشعر يقف على رأسها. الاصليون يلقبونها ارض الارواح الحية ويستطيع المرء ان يصدق ذلك بسهولة. ففي الليل كانت الاضواء تتلاعب فوق التلال وكأن شبحاً خفياً يلهو بنقلها من مكان الى آخر لاخافة من تسوّل له نفسه الاقتراب من التلال السحرية. قد تكون هذه الاضواء نتيجة بعض العوامل الطبيعية، لكن من المخيف حقاً مشاهدتها. وكانت كولبي سعيدة جداً لان الشمس كانت تغرق في تلك اللحظات كل الزوايا. واخذت كولبي بنصيحة بوكا فربطت فرسها الى شجرة قريبة وتسلقت معه التلال سيراً على الاقدام. لكنها لم تتمالك نفسها من ان تهمس في اذنه.

«أتمنى ألا تكون هناك ثعابين سامة في الجوار يا بوكا!»

ابتسم بوكا وقادها الى مغارة واسعة تناثرت على ارضها جلود الثعابين.

وعرفت كولبي فوراً ان هذا هو المكان الذي تغير فيه الثعابين جلدها سنوياً. اراد الصغير ان يمازحها بعدما شعر بخوفها. وعندما التفتت اليه لتؤنبه على ما فعل انفجر ضاحكاً، وفرّ الى المغارة المجاورة، فتبعته وكاد رأسها يصطدم بالمدخل المنخفض. وفي الداخل رأت كولبي ممراً في الصخر يؤدي الى مغارة اخرى. ومرّ بوكا من الفتحة وساعدها لتلحق به. ولم تتمالك كولبي نفسها من التفكير بان دارت لا يستطيع ادخال جسمه القوي في هذه الفتحة الصغيرة. وعندما وصلت كولبي الى المغارة الثانية شهقت دهشة. فالجدران الصخرية كانت مزينة بلوحات بدائية غريبة ملونة بظلال الارض. بعض الوجوه على الجدران كانت تتفحصها بشكل مخيف. عرفت انها تمثل الارواح الشريرة عندما رأت السنتها الحمراء تتدلى من شفاه بيضاء. اما الايدي والارجل فكانت تشبه اطراف الهياكل العظمية مع فرق واحد، هو وجود مخالب حيوانية بدل الاظافر.

وفي مواجهة هذه الارواح الشريرة كان يقف المحاربون الشجعان الذين يدافعون عن الخير تحت حماية الارواح الصالحة. وعلى عرض السقف تلوى رسم ثعبان ضخم رفع رأسه مهدداً. وتجوّل بوكا بثقة في ارجاء المغارة وكأنه بائع لوحات يعرض بضائعه على مشتر ثريّ. كان يدلها على الرسوم ويشرح لها معانيها باطلاع يستغرب المرء توفره في صبي صغير.

لأجيال عدة، ساهم السكان الاصليون المحافظة على هذا المعرض البدائي. ولذا مشت كولبي بصمت واحترام قرب بوكا وهي تمرر يدها بين وقت وآخر على الصفحات الصخرية. وبعد فترة التفتت الى بوكا لتقول له بانفعال واهتمام.

«والآن اعد كل ما قلته من البداية».

وابتسم بوكا فخوراً بتراثه العريق، وسعيداً لان الآنسة الشابة قدّرت معنى الثقة التي منحها اياها عندما اصطحبها الى الارض المقدسة، ارض اجداده.

فور عودتها الى المنزل الكبير طالعها مشهد غريب. كانت روشيل شاحبة

اللون، زائغة النظرات، تستند الى حائط المنزل، وامامها كولبار جو يحدّق فيها بثبات. ما هي المدة التي قضتها يا ترى في هذا الوضع. لا احد يعرف؟ وتحركت كولبي بسرعة توجه اوامرها الى بوكا.

«هيّا يا بوكا استدعي جو. الآنسة تينانت خائفة، كن حذرا في تحركاتك».

كانت كولبي تعرف جيداً ان غضب الامو قد يكون خطراً فرفسته تعادل قوتها رفسة البغال. وانصاع بوكا للطلب بسرعة. فاستدعى صديقه بلهجته الوطنية. استجاب الطائر للنداء، وانطفأ بريق الخطر في عينيه وهو يلقي رأسه بدلال فوق كتف بوكا. اسرعت كولبي الى روشيل معتذرة. هي مسؤولة عن بوكا وبالتالي عن الامو.

«آسفة يا روشيل».

«طبعاً انت آسفة أيتها الفتاة اللئيمة. انت تحاولين الانتقام مني لما قلته امس. تسمّرت هنا حوال عشرين دقيقة وانا خائفة من رفسة تصيبني في الرأس او اسوأ من ذلك. كنت خائفة من الصراخ لطلب النجدة، حتى لا أثير حفيظة هذا الحيوان اللعين. انه يستحق القتل».

وأخذت روشيل تصرخ وتتوعد. اما كولبي فاخذت تتكلم بحذر وهي تحاول المحافظة على هدوء اعصابها قدر المستطاع.

«اهدأي يا روشيل. اؤكد لك انك لم تكوني بخطر».

«تؤكدين ماذا ايتها اللعينة؟»

ورفعت يدها وصفعتها بقوة لم تكن كولبي تنتظر ردة الفعل هذه. فسقطت ارضاً واصطدمت مؤخرة رأسها باحجار الحديقة. اقترب الامو من روشيل مهدداً، اما بوكا فتسمّر مكانه هلعاً يحدق في كولبي. كانت فاقدة الوعي لا تتحرّك وقد تحول لون وجهها الى لون بنفسج الصحراء. ووقع عليه الامر كالصاعقة. فاخذ يصرخ عالياً: «الآنسة فارقت الحياة». وركض يائساً باتجاه المنزل الكبير، برغم انه كان ممنوعاً من دخوله. ولما لم يجد سيده هناك، اسرع خارجاً ولم يتوقف حتى استراحت عيناه اخيراً على دارت وستيفن يخرجان

من الاسطبل. وبعد لحظات التف كل سكان المنزل الكبير حول كولبي، بعدما سمعوا جميعهم عويل بوكا. ونقل دارت بصره بين كولبي وروشيل التي تسمّرت مكانها كصخرة، حتى نسيت وجود الامو. صفق دارت بيديه فابتعد الحيوان عنها. وركع على ركبتيه ليفحص كولبي عن قرب. كانت قد استعادت وعيها، وان كانت ما تزال تحت تأثير الصدمة. رفعت اليه عينيها الخضراوين فلفتها الاهتمام القلق الواضح على وجهه. فقالت باسمة قبل ان يغمى عليها مجدداً:

«لا يعجبني اصدقاؤك».

لم تشعر روشيل في حياتها بالحرج الذي كان يغرقها في تلك اللحظة. انطلقت في دفاع مستميت عن نفسها وهي تمد يدها الى موزان طلباً للنجدة، واحمر وجهها انفعالاً.

«انه الامو. اخافني وسمرني في مكاني لاكثر من نصف ساعة. لم يتحرك حتى جاءت كولبي وبوكا. صحيح انها صرفته بعيداً عني، لكنها كانت قليلة الادب معي. كنت مضطربة لدرجة لم اعرف معها ماذا حصل بعد ذلك».

ووضعت يديها على وجهها وانفجرت في بكاء عنيف. لكن احداً لم يهتم بها. يا لكولبي اللعينة! كيف كان بامكانها ان تتنبأ بانها ستسقط ارضاً وتصدم رأسها بحجر. يا له من موقف مزعج.

مرر دارت اصابعه في الخصلات النارية بحثاً عن اي ورم تكون قد تركته الصدمة. فوجد جرحاً صغيراً لا اهمية له. حملها بين ذراعيه وسار بها الى المنزل. وقطعت بيللا الصمت لتطمئنهم جميعاً.

«لا تخافوا. مجرد رضوض بسيطة. سأتصل بمقر الطبيب المتجول، لأساله عما يجب عليّ فعله في هذه الحالة. سأطمئن اكثر بعد ذلك».

وتبعوا جميعهم دارت بصمت الى داخل المنزل.

عندما عادت كولبي الى وعيها، شعرت بالم بسيط في اعلى عنقها انتقل تدريجاً ليضع غشاوة على عينيها. وفي لحظة استرجعت كل تفاصيل الحادث.

رفعت رأسها ببطء فرأت دارت يدخل من الباب ووراءه بيللا تبدو متعبة، لكن سرعان ما اشرق وجهها عندما رأت كولبي جالسة في فراشها.

«استيقظت يا ابنتي العزيزة؟ هل تشعرين بتحسن؟ يبدو عليك ذلك».

«نعم أنا أحسن بكثير. شكراً لك يا عمتي بيللا».

وانتبهت كولبي للمرة الاولى انها ترتدي قميص نومها البرتقالي المنخفض لدى فتحة الصدر، فغرقت اكثر تحت الغطاء. اقترب دارت من الجهة اليسرى من سريرها وفي يده حبتين صغيرتين. وطلب منها الجلوس مجدداً.

«هيا ابلعي هاتين الحبتين».

«وما هذا؟»

«لا تسأليني. اسأل الطبيب».

قالها ببرود. فتدخلت بيللا كعادتها لترطب الاجواء.

«هذه الحبوب تحمل الرقم ثمانية وعشرين يا كولبي. ولا ادري ما هي».

وسأل دارت كولبي ساخراً.

«هل انت مطمئنة الآن؟»

ضحكت كولبي. وتناولت الحبتين.

«لا، لكني لا ابالي. اعتقد ان الطبيب يفهم اكثر مني في هذه الامور».

كنفارا، ككل المزارع في هذه المنطقة النائية كانت مجهزة بمختلف انواع الادوية. وكانت الوصفات الطبية تتم هاتفياً، بواسطة ارقام معينة تلصق بالدواء، فيعطي الطبيب رقم الدواء الواجب استعماله في حال لم يتمكن من الوصول الى مريضه في الوقت المناسب. وقد برهنت هذه الطريقة عن نجاح اكيد.

اعادت بيللا ترتيب الوسائد وراء ظهر كولبي.

«بوكا جاء لزيارتك منذ دقائق قليلة. كان الطفل المسكين مضطرباً. انه يحبك كثيراً يا كولبي. سأناديه بعد قليل ليراك. لم يصدق بعد انك بخير».

وتبادلتا الابتسام. التفتت بيللا الى دارت الذي ظلّ صامتاً يتفحص

وجه كولبي الشاحب.

«اعتقد انك تريد التحدث مع كولبي يا دارت. سأترككما معاً. وسأرسل لك عشاء خفيفاً يا كولبي. لا تحاولي النهوض من فراشك».

واغلقت وراءها الباب قبل ان تعلّق كولبي بكلمة واحدة. ارغمها دارت على الاسترخاء في فراشها وجلس الى جانبها ينظر اليها عاقد الحاجبين.

«حسناً يا دارت. ما الأمر هذه المرة؟ هل ضايقت صديقتك العزيزة؟»

«اخبريني بما حصل. سمعت رواية روشيل، وثرثرة بوكا. وانا الآن بانتظار ما ستقولين».

«وهل ستصدقني يا دارتلاند كينغ؟»

«ربما».

«لا أعرف من اين ابدأ!»

«من البداية».

اغمضت كولبي عينيها. آه لو يعرف كم يخفق قلبها في هذه اللحظة. انها تحبه! استغرقتها افكارها لدقائق قبل ان تفتح عينيها اخيراً، لترى ابتسامة دارت الحانية.

«من حسن حظي اني اخذت اجازة اليوم. هل عليّ ان انتظر النهار بطوله كي اسحب منك بضع كلمات؟»

«الأمر ليس بهذه الأهمية يا دارت. كانت روشيل خائفة لدرجة انفجر معها غضبها في أول وجه رأته. وصادف اني كنت ذاك الشخص. انا أسفة جداً لأنك لم تكن انت مكاني»

«ألم تسخري منها. أعرف طبعك الناري».

«لا. طلبت منها ان تهدأ فقط. واؤكد لك اني كنت أسفة جداً لما حصل لها. لكني لم اعد أسفة الآن. قبضتها حديدية فعلاً وكأنها من عائلة كينغ».

«ليس لها الحق بضربك».

«انت فعلت مثلها تماماً. هل نسيت؟»

«لا. لكن الأمر يختلف معي».

وضحك عالياً فأغلقت كولبي عينيها ثانية. لا تدري ما بها. انها مضطربة جداً. لا بد انه أثر الضربة. واحسّت كولبي بقبلة رقيقة على وجهها فارتجفت بعنف لملمس شفتيه.

«آه يا دارت. لماذا فعلت ذلك؟»

ابتسم ساخراً بانفعالها.

«لو كنت اعلم أنك ستتصرفين هكذا لما قبلتك. سأتركك الآن لترتاحي. سأعود لاراك لاحقاً».

وقبل ان يخرج من الغرفة، توقف قليلاً عند الباب ليقول لها:

«صديقتي العزيزة اكيا تسميني يا كولبي عادت الى منزلها. طلبت من ستيفن مرافقتها. كانت منزعجة جداً. وكذلك بيللا. آه من النساء!»

تعليقه ذكّرها بالعم سيروس، فأغرقت في الضحك.

٩ ـ المطاردة

حشد الصيف كل قوته ليغرق الأرض بموجة من الحر الشديد. القطيع بمعظمه نقل الى اسواق أديلا بيد ليباع هناك قبل ان توهن الحرارة قوته ونشاطه. فأشهر الصيف في المناطق الداخلية من القارة الاسترالية تمارس قسوتها على الانسان والحيوان معاً. ولذا كان على الرجال نقل ما تبقى من القطيع من المناطق التي جفت مياهها الى واحات اخرى، وذلك في الشاحنات لتجنيب الماشية الارهاق والعطش.

وكان الرجال يعملون من الصباح الباكر وحتى ساعة متأخرة من المساء. ففي ساعات النهار كانوا ينقلون الثيران الكبيرة وينتظرون الليل ونسماته المنعشة لنقل الابقار وعجولها.

ومع مرور الايام استقرت نساء البيت الكبير في نظام روتيني يومي. ووزعن ساعات النهار بين الاهتمام بشؤون المنزل، والاعتناء بالحديقة، والاشراف على الدكان التجاري الخاص بالعمال. وتولت كولبي و سوزان مهمة تموين الدكان الصغير عوضاً عن مايك الذي استغرقه عمله اليومي الشاق.

كانت الفتاتان منشغلتين تماماً في ترتيب دفعة البضائع الجديدة التي جلبها الطيّار الشاب بوب غافين. وكان لا بد من تسجيل كل شيء في الدفاتر: الثياب، والمواد الغذائية، ومستحضرات الغسيل، والكتب، والاسطوانات. وتوقفت كولبي ضاحكة أمام مجموعة القمصان التي طلبها العمال. فهم كمعظم الناس الملونين يحبون الألوان الصارخة. وكلما كان اللون فاقعاً كلما كان الاقبال عليه

أكبر. ويبقى اللون الأحمر الناري هو الأكثر شعبية، ويليه البرتقالي. وصحيح ان قمصان العمل والسراويل الكاكية كانت تخاط في المزرعة وتؤمن للعمال مجاناً، الا انهم يفضلون النوع الأكثر ترفاً الذي يحصلون عليه من دكان المزرعة. ودهشت كولبي للدقة والفعالية والسرعة التي تعمل بها سوزان. فهي تتصرف في المنزل عكس ذلك تماماً.

وكأن سوزان احست بم يجول في خاطر كولبي فرفعت رأسها مبتسمة.

«كنت احلم دائما بان اصبح ممرضة».

«وما الذي منعك من تحقيق هذه الامنية؟»

«لا املك المال الكافي لذلك، ومن جهة اخرى لا استطيع ان اترك امي وحدها هنا، انها ليست مزارعة برغم انها تحاول جهدها لتكون كذلك».

ورفعت سوزان يدها بعصبية كأنها تريد ان تطرد هذه الامنية من رأسها.

«ما فائدة الحديث عن كل هذا. انا لا استطيع ان افعل شيئاً!»

«بل تستطيعين ان تفعلي الكثير. لم يفت الاوان بعد. هل تكلمت مع دارت بهذا الشأن».

«دارت!... يا الهي... طبعا لا . اريد ان ابوح لك بسر يا كولبي. كنت اخاف جداً من زوج امي، وكذلك ستيفن. وجزء من ذلك ما زال يلازمني عندما اتحدث الى دارت. انه ابن العم سيروس.»

ولم تصدق كولبي ما سمعت.

«أه يا سوزان، كيف يمكنك النظر الى دارت هكذا. انه يختلف عن العم سيروس. دارت انسان بكل معنى الكلمة».

«اعلم. لم تفهمي قصدي جيداً. زوج امي كان ايضاً طيباً في معاملتنا لكن على طريقته الخاصة. وفي الحقيقة حاول جهده ان يكسب ثقتنا، لكننا، كأولاد المدن، كنا نشعر بالخجل وبعدم الثقة بالنفس. لم يستطع العم سيروس ان يفهمنا. اما بالنسبة الى دارت فالامر مختلف اعترف بذلك. لكن عليك ان تعترفي انت ايضاً ان لدارت شخصية مميزة اجد معها صعوبة في ان اطلب منه اي شيء.

حين اتكلم معه اتلعثم او اجيب بعنف وجفاف».

وخفضت سوزان نظرها لتتابع بشيء من الخجل.

«اعتقد انك تعرفين اننا لا نملك مالا خاصاً بنا. لكننا لسنا بحاجة اليه في أيّ حال. دارت يتكفل بكل أمورنا».

«ما المشكلة اذن؟»

«يبدو يا عزيزتي كولبي انك لم تسمعي ما قلت. اريد ان اصبح ممرضة والايام تمر بسرعة. لم اعد صغيرة. انا في الثامنة عشرة. اي اني تجاوزت السن المطلوبة للسنة الدراسية الاولى».

ونظرت الى كولبي باعجاب قبل ان تكمل حديثها.

«الحياة التي نعيشها شديدة القساوة يا كولبي، ولا يستطيع تحملها الا الاقوياء. انت جزء من هذه الارض وتنتمين اليها بكل جوارحك. على المرء ان يكون اعمى كي لا يرى ذلك. صحيح انك كنت جميلة جداً عندما جئت الى هنا لكنك الآن اكثر فتنة وكأن الطبيعة رحبت بعودتك الى احضانها بان سكبت عليك كل اشراقها ودفئها. هذه البلاد بقسوتها، وصمتها المخيف، ومساحاتها الشاسعة، لا ترحم الا الرجال الذين يوازونها صلابة. انا لم اخلق لها، وكذلك والدتي برغم انها تدعي العكس. اما ستيفن فيعيش هنا اسعد ايام حياته.

«ربما كنت على حق يا سوزان. لكني لا ارى سبباً يدعوك الى تحمل كل هذا».

وترددت قليلا قبل ان تتابع قائلة:

«هل تسمحين بان اكلم دارت بهذا الشأن؟ لا يمكن ان تتوقعي منه ان يكون قادراً على قراءة الافكار. انا متأكدة انه لن يقف في طريقك. بل انا واثقة انه سيساعدك مادياً».

«حسناً يا كولبي. تكلمي معه اذا كنت ترين ذلك مناسباً. لكن روشيل قالت...»

وتوقفت فجأة عن الكلام، فاسرعت كولبي لمساعدتها.

«نعم؟ روشيل قالت ماذا؟»

«انسي الموضوع يا كولبي. لا يهم ما قالته روشيل. اعتقد باني سأكون ممرضة ممتازة».

«لا شك في ذلك. اتركي الامر لي. سأتحدث الى دارت في اقرب فرصة ممكنة».

ودخل بن عليهما في تلك اللحظة. رفع قبعته عن رأسه ليحييهما باحترام.

«صباح الخير. آسف لاني قطعت عليكما الحديث. اعذراني. دقيقة واحدة وسأخرج».

وتوجه فوراً الى الغرفة الخلفية ليعود بعد قليل حاملا بندقية من عيار ٢٢. احنى لهما رأسه بسرعة وهرول خارجاً.

رفعت سوزان كتفيها باشمئزاز.

«اعتقد انه ذاهب لتنفيذ عملية قتل جديدة».

«نحن بحاجة الى اللحم يا سوزان. بن يستطيع ان يقتل العجلة بطلقة واحدة. انها طبيعة الحياة هنا. ولا يستطيع المرء ان يكون شديد الحساسية في هذه الامور والا مات جوعاً».

«اعلم يا كولبي. ولا استطيع الادعاء اني احب ان أكون نباتية».

والقت سوزان نظرة اخيرة على الغرفة الواسعة.

«اعتقد اننا انتهينا من ترتيب الشحنة الجديدة. اليس كذلك يا كولبي؟»

«نعم».

تمتمت كولبي بشرود. ذهنها كان منشغلا الآن بما ستقوله لدارت. اغلقت سوزان الدكان وعادت الفتاتان الى المنزل.

انتظرت كولبي نهاية الاسبوع قبل ان تحدث دارت بشأن سوزان. ارادت ان تنتهز اول فرصة يعود فيها باكراً الى المنزل لقضاء امسية هادئة. وما كاد دارت يفعل ذلك حتى لحقت به الى الشرفة تحمل له كوباً من الشراب المنعش. مناورتها الطفولية هذه، اكتشفها دارت بسرعة.

«حسناً يا كولبي. ما هو طلبك هذه المرة؟»

«كيف عرفت؟»

نظر اليها ضاحكا وهو يقول مداعباً:

«هيا يا عزيزتي اطلقي نيرانك».

وقفز قلب كولبي فرحا عندما سمعته يناديها يا عزيزتي ، لكنها تمالكت نفسها بسرعة.

«الامر يتعلق بسوزان».

ومرت في عينيه الواسعتين لمحة اهتمام سرعان ما انطفأت.

«حقاً! تكلمي يا صغيرتي. ليس من عادتك التلعثم في الكلام».

«سوزان تريد ان تصبح ممرضة، ومن حقها ان يفسح لها المجال لتحقيق طموحها».

«طبعاً!»

«انت موافق اذن»

ولم تصدق كولبي انها فازت بهذه السرعة، فرفعت رأسها تتفحص وجهه. طمأنتها ابتسامته.

«طبعاً يا عزيزتي اوافق. هل كنت تظنين عكس ذلك؟»

وامسك يدها بقوة، بعدما توقفت نظراته لحظات طويلة على بشرتها الذهبية.

«تعالي معي لنقوم بنزهة قصيرة يا صغيرتي».

وكادت كولبي تضحك عاليا وهي تبسط يدها الصغيرة في قبضته. دعوته لها كانت امراً اكثر منها دعوة نزهة.

وتعلقت عيناها بقامته الطويلة، وشعرت بالدفء يغمرها وهي تفكر بهذه العلاقة الجديدة بينهما.

دارت. آه دارت. واعتصر قلبها المآ.

سارا بصمت. لم يرد احد منهما ان يعكر سكون تلك الامسية الرائعة. في ضوء القمر بدت التلال قريبة لدرجة يشعر معها المرء وكأنه يستطيع ان يمدّ يده ليلمسها. كان الهواء عابقاً بأريج الزهور، ومن البعيد تناهت اليهما تمتمة طاحونة الهواء، وهمهمة الماشية المنتشرة على التلال.

واحست كولبي براحة عميقة، فتنهدت عالياً. وارخى دارت يده على

كتفها وهو يقول بحب وفخر:

«انها ارض رائعة يا كولبي!»

ابتسمت له. وانعكس في عينيها شعاع القمر.

«انها ارض للرجال فقط. اليس كذلك يا دارت؟»

«اننا نحاول ان نجعلها صالحة للنساء ايضاً. الرجل قد يقوم باي شيء عندما يجد المرأة المناسبة. والمرأة بدورها ستحاول ان تتغلب على الشعور الطاغي بالوحدة من اجل الرجل الذي تحب. وبعض النساء لايشعرن بها على الاطلاق».

ونظر اليها بحنان. لكنه سارع الى تغيير الموضوع عندما احس انه سيضعف امام هذه الطفلة التي كبرت بسرعة.

«الآن. ماذا كنت تريدين ان افعل بشأن سوزان؟ لماذا لم تكلمني هي بنفسها في هذا الشأن؟»

«اعتقد انها لم ترد ازعاجك. استغرقك العمل كثيراً في الاسابيع القليلة الماضية. اما انا فعرفت بالصدفة انها تحلم بان تصبح ممرضة. هذا كل شيء. اعتقد انها تريد ان تبدأ الدراسة في اقرب فرصة ممكنة. انها ليست مزارعة. الناس لا يستطيعون كلهم تحمل هذه الحياة القاسية. الم تشعر بذلك يا دارت؟»

«لا يبدو لي انك تواجهين اي مشاكل هنا!»

ردت بعفوية، وكأنها تريد ان تعبر دفعة واحدة عن كل ما تحمله من حب للأرض هذه.

«حبها يجري في عروقي. عرفتها طفلة فتعلقت بها. لم انسها ابداً. كنت دائما احلم باليوم الذي اعود فيه الى كنغارا».

مرر دارت اصابعه في خصلاتها النارية، ثم رفع وجهها اليه. فاحست كولبي وكأن تياراً كهربائيا يمر في جسمها. جمدت في مكانها غير قادرة على القيام باي حركة. وفضح وجهها المشرق اضطرابها. اما دارت فلم يظهر عليه اي انفعال. احاط كتفيها بذراعه وتابعا السير. ومرة ثانية غيّر مجرى الحديث ليعود به الى سوزان.

«ما سأقوله لك الآن لا يعرف به احد الا بيللا. ولذا ارجو ان تبقيه طيّ الكتمان يا كولبي. لقد خصصت لسوزان وستيفن مبلغاً محترماً من المال، لا يستطيعان التصرف به الا عندما يبلغان الخامسة والعشرين من العمر. حددت السن هذه لاني اؤمن بان المال الذي يأتي بسهولة وفي سن مبكرة، يذهب بسرعة. لم ارد ان يعرف ستيفن وسوزان بالامر الا في الوقت المناسب. ستيفن يعمل الآن بجد ليبني مستقبله. انه شاب طيب وصلب. اما بالنسبة الى سوزان فالوضع مختلف. لم تستطع ان تتأقلم مع هذه الحياة القاسية. لا بد ان بيللا شعرت بذلك، لكنها كعادتها لم تقل شيئاً. تريد سوزان ان تصبح ممرضة. حسناً. سأعطيها المبلغ اللازم لذلك وسأؤمن لها مكاناً للاقامة في المدينة تعيش فيه ايام الاسبوع، وتقضي عطلتها الاسبوعية معنا. شرطي الوحيد ان تسكن سوزان في بريسبان. فلي اقارب هناك يسهرون عليها».

وتنفست كولبي الصعداء.

«كم انا سعيدة لانك وافقت يا دارت. كنت اعلم انك لن ترفض.»

«وهل كان هناك سبب يمنعني من الموافقة؟ لا يمكنكم ان تتوقعوا مني قراءة فكر فتاة شابة. كل ما لاحظته على سوزان انها تميل الى السوداوية والمزاجية. ربما ستتغير الآن. في اي حال سأكلمها قريباً. هل يوافقك هذا يا آنسة كينغ؟»

ونظرت اليه كولبي وفي عينيها ثقة كاملة وعميقة.

«نعم يا دارت».

ولم تستطع ان تبعد نظراتها عنه. كانت سعيدة جداً. اشرق وجهها الشاب وكأن القمر اعارها شيئاً من تألقه.

«هل تحاولين جعلي خاتماً طيعاً حول اصبعك يا كولبي؟»

ولمعت عيناها بشقاوة فيها مزيج من الطفولة والانوثة المتفتحة.

«لا ادري ماذا اوحى لك بهذه الفكرة! وهل استطيع ان افعل ذلك؟»

«ربما».

كان صوت دارت حاداً وفيه الكثير من الدعابة. للحظة احست كولبي

انها غير قادرة على تحمل نظراته. حتى الهواء بدا محملا بقوى جديدة ضغطت على اعصابها.

وطغى على صوت خفقان قلب كولبي، وقع حوافر حصان يقترب منهما بسرعة. وتغير وجه دارت، وهو يلتفت باتجاه الفارس.

«لا بد انه واحد من العمال. شيء ما حدث».

ووقفا بصمت، ينتظران ان يقترب منهما الفارس كي يتبينا هويته.

«انه ستيفن».

وبعد ثوان كان يقفز عن جواده وهو يلهث بسرعة.

«دارت، دينغو هجم مجدداً. قبل قليل وجد مايك بقايا عجلين صغيرين افترسهما دينغو بوحشية».

فاجابه دارت بعنف.

«حسناً. هذا أخر ما سنسمعه عن هذا الحيوان المتعطش للدماء. سأجمع فريقاً من الرجال للبحث عنه. علينا ان نقتل دينغو قبل بزوغ الفجر. هل كان بن برفقتك؟»

وتصبب العرق من جبين ستيفن.

«لا . فقط مايك وبعض العمال الصغار».

«ابحث عن بن. سأنتظركما امام المنزل الكبير. سأرافقكما للحد من اعتداءات هذا الحيوان المفترس. تكفي المرات العديدة التي تمكن فيها من الافلات».

واسرع دارت باتجاه المنزل، فركضت كولبي لتلحق به.

«دارت . ارجوك دعني ارافقك».

«لا».

قالها بحزم. فأصرت بعصبية.

«لن اضايقك. ارجوك يا دارت. سأساعدك. الا تثق بي؟»

توقف فجأة. وعندما نظر الى وجهها الصغير الغاضب، ابتسم مرغما فعرفت بغريزتها الانثوية انها انتصرت عليه.

«طبعا اثق بك يا كولبي. حسناً تستطيعين مرافقتي. والله وحده يعلم لماذا وافقت على هذا الامر!»

وتضايق دارت من ضعفه العابر، لكنها اسرعت قبل ان يغير رأيه.

«شكراً عزيزي دارت. سأذهب فوراً لابلغ العمة بيللا».

وطارت كولبي بخفة الفراشات، ولم تتوقف الا حين بلغت المنزل. كانت بيللا وسوزان في غرفة الجلوس تطالعان بعض المجلات. ورفعت بيللا رأسها بقلق.

«ما بك يا كولبي. ماذا حدث؟»

«دينغو هاجم القطيع مرة اخرى. سيخرج دارت للاحقته. وانا ايضاً.»

«هل وافق دارت على ذلك؟»

وبدا القلق واضحاً على وجه بيللا. صحيح ان لكولبي ارادة حديدية، لكنها لم تتوقع ابداً ان يستسلم لها دارت الذي كان يحرص دائما على حماية ومراقبة ابنة عمه.

«نعم دارت وافق. ليست هذه المرة الاولى التي اخرج فيها لصيد ذئب الدينغو. لكني كنت اظن انها ستكون الاخيرة».

وهمست كولبي في اذن سوزان.

«اعتقد ان ما كنت تريدينه سيتحقق قريبا. انتظري قليلا وسترين بنفسك».

وسمعت كولبي صوت دارت يناديها بلهجة آمرة. فطارت اليه حتى لا تغضبه. حركة خاطئة واحدة وسيأمرها بالبقاء في المنزل. كان الرجال الثلاثة بانتظارهما. قفزت على فرسها بمهارة الفارسة المحترفة، فصفر ستيفن اعجاباً، قبل ان يعلق ضاحكا:

«يسعدني حقاً ان التقيك مرة اخرى يا آنسة كينغ».

فاجابه دارت بحدة قبل ان ينطلق بجواده:

«انها محظوظة فعلا لأنها هنا».

وتحركت كولبي وراء الرجال تستمع الى احاديثهم. دينغو .الذئب المتوحش.

المعروف بقوته ومكره، كان يشن هجمات دورية في شتى انحاء المقاطعة تاركاً وراءه اثراً دامياً من العجول الميتة، ويقال انه حاول اكثر من مرة قتل الرجل الذي يقف في طريقه. احد العمال تمكن من اصابته برصاصة واحدة عند هجومه الاخير، لكن الذئب استطاع الفرار ولجأ الى التلال ليسترجع قواه. حتى بن اعترف بانه من المستحيل تقريباً القضاء على هذا الوحش البري نظراً لجرأته وسرعة تحركه.

وبعد خمس وثلاثين دقيقة وصلوا الى مخيم رعاة البقر، الذي انتشر حوله القطيع يرعى باسترخاء. نهض مايك من مكانه واقترب منهم عابساً.

«تمكنا من تحديد مكانه عدة مرات. لكننا لم نتمكن من القضاء عليه. صوت الرصاص سيخيف القطيع، فلا نعود نستطيع السيطرة عليه».

ترجل دارت عن جواده وساعد كولبي على النزول عن فرسها.

«على الاقل نحن الآن بينه وبين فريسته. اي ان هذا لمصلحتنا. سنحاول ان نطبق عليه من كافة الاتجاهات فور بزوغ الفجر».

كان مايك ينظر الى كولبي وكأنه لا يصدق وجودها بينهم. لاحظ دارت التعبير الذي مرّ خطفاً في عينيه، فابتسم ساخراً.

«اعرف. انا نفسي اكاد لا اصدق اني وافقت على اصطحابها معي».

ودافعت كولبي عن نفسها فوراً.

«انا صيادة ماهرة يا مايك».

وهب بن الى نجدتها.

«نعم هي كذلك! الست انا استاذها».

«فلنأمل ان تتمكن الصغيرة من برهنة ذلك. هذه هي فرصتك الوحيدة يا عزيزتي. وحتى اتأكد من انه لن يصيبك مكروه، سأبقيك بيني وبين بن. ستيفن اذهب انت برفقة مايك. سأعود بعد قليل اريد ان اتكلم قليلا مع الرجال».

وتوجه دارت الى العمال، ليلقي اوامره عليهم. وبعد ساعة تقريباً سمع الجميع صوت رصاصة يشق سكون الليل. وندت عن دارت شتيمة عنيفة.

«يا الهي لا بد انه ستيفن. الن استطيع ابداً ان اجعل منه راعياً ماهراً؟»

وقطع الصمت الثقيل صوت بن يقول بقلق:

«القطيع...»

وسمعوا كلهم صوت الحيوانات التي اخافها صوت الرصاص فبدأت تركض كموج هادر يجرف كل شيء في طريقه. ونظر دارت الى جسم ابنة عمه الرقيق.

«يا الهي كيف وافقت على مجيئك معنا!»

«لا تخف. انا لست لعبة من زجاج».

ومن مكان قريب ارتفع صوت مايك صارخاً:

«ستيفن! لا تطلق رصاصة ثانية! اين انت... القطيع! »

جاء الانذار متأخراً، فالقطيع كان يهدر وراء قائده والعرق يتصبب منه خوفاً وهلعاً.

واحس ستيفن الخطأ الذي ارتكبه. رأى دينغو فاطلق رصاصة انذار. لقد نسي تماماً وجود القطيع في حمى المطاردة. وتصبب العرق البارد من جبينه. انه لن يصبح ابداً راعياً للبقر، ولو بعد مليون سنة من التدريب. دارت سيقتله لفعلته هذه. ها هو يراه الآن على صهوة جواده يمرّ امام الثور القائد وهو يطلق الرصاص في العراء والرجال على الجوانب يلوحون بسياطهم في الهواء. واجبر دارت الثور الهائج على تبديل مساره، واخيراً اوقفه على بعد اميال قليلة من المخيم.

اقترب مايك والعمال من القطيع الذي كان ما يزال يرتجف خوفاً، وحاولوا تهدئته باصواتهم الآمرة.

«انتهى الأمر. الحمد لله!»

صرخت كولبي. لم تعد تستطيع ان تلعب دور الفتاة الهادئة المتملكة لاعصابها. ما زال ذهنها مشغولا بصورة دارت منقضاً على القطيع الهائج. الخطر كان كبيراً. عجل واحد يستطيع ان يثير القطيع باكمله بحركة واحدة.

وبعد عشر دقائق عاد ستيفن شاحب اللون، وقد طأطأ رأسه ارضاً. وقف

صامتاً امام دارت الذي ترجل عن جواده ببطء. وبدا الهواء ثقيلا بالتوتر. وساد الصمت لثوان امتدت وكأنها ساعات. واخيراً قطع دارت السكون ليقول بحدة.

«اعتقد انك تعلمت الدرس جيداً يا ابني. لذا لن اقول لك اكثر من هذا».

واعترض ستيفن فوراً.

«اصرخ يا دارت. ارجوك انبني. انا استحق ذلك. هيا اضربني. قم باي شيء ارجوك! انا استحق العقاب».

«لا داع لذلك يا ستيفن. علينا ان نستعد لمتابعة المطاردة. سنتحرك عند بزوغ الفجر. سنتقاسم الحراسة طوال الليل».

وارخى دارت يده على كتف كولبي يهدئها لانه احس بان جسمها ما زال يرتعش ثائراً. وارتفع صوت مايك:

«سأقوم انا بنوبة الحراسة الاولى».

فاستراح الجميع بانتظار الصباح.

فاجأهم الفجر وهم يشقون طريقهم وسط التلال بحثاً عن دينغو. رآه بن الساعة الثالثة صباحاً تقريباً وانطلقوا فوراً في اثره. كان الرجل العجوز يترجل عن جواده بين الحين والآخر ليلاحق الآثار التي تركها الحيوان على الارض الندية.

ارتفعت الشمس تدريجياً في السماء، حتى صارت تحرق ظهورهم باشعتها اللاذعة. تقدم دارت وبن المجموعة، يحملان بندقيتين من نوع وينشستر. مايك وستيفن لازما كولبي، واحد الى يمينها والآخر الى يسارها، ليدافعا عنها في حال حدوث اي هجوم مفاجيء. كان دينغو في مكان قريب، يتسابق معهم في رحلة الموت هذه. مرات عديدة تمكن من الافلات من قبضتهم بمكر وحكمة. كان يختار فريسته في ارض وعرة، بحيث تصبح ملاحقته شبه مستحيلة. وعلى طرف منطقة التلال الرملية شاهدوه للمرة الاولى يا له من حيوان ضخم، قوي العضلات. انه بحجم الانسان تقريباً. لونه الاصفر البراق، والنقاط الحمراء على

حنجرته فضحا مكانه.

اطلق بن جواده باقصى سرعة. وشهر دارت بندقيته وحصانه الاسود يسابق الريح. ترددت طلقة دارت قوية في سكون الطبيعة فخر الحيوان ارضاً من الرصاصة الاولى. وعندما وصل اليه دارت وجده جثة هامدة.

وانتظرت المجموعة في مكانها عودة دارت الذي ذهب برفقة بن للبحث عن لورا انثى دينغو، التي عرفها السكان الاصليون منذ عرفوا دينغو. ففي مملكة الحيوان، كان دينغو من الفصائل النادرة التي تلازم انثاها طوال العمر. وفي حال ماتت قبله لا يتخذ شريكة اخرى. الوفاء، المرأة، والذكاء، هي كلها من ابرز صفات هذا الحيوان. وتمكنت لورا من الفرار، واختفت في اعالي التلال. الطيور وحدها كانت تعرف مكانها، لكنها رفضت الافصاح عنه.

ونظر دارت الى بن.

«اعتقد اننا انهينا عملنا لهذا اليوم. اليس كذلك؟»

لم يكن وجه العجوز يعبر عن اي انفعال.

«نعم. سنضيع وقتنا ان حاولنا ملاحقة لورا».

واشار بيده الى اعلى التلال.

«من الصعب عليها. ان تبقى هناك بدون ذكرها الذي كان يؤمن لها الطعام والحماية».

«فلنعد الى المزرعة اذن».

انتهى امر دينغو، وهو مسرور جداً لذلك. بقي عليه ان ينتظر رد فعل لورا. هل ستهاجم القطيع وحدها سيتبين ذلك. وعادا الى المجموعة المنتظرة بصمت.

فسأل ستيفن باهتمام:

«هل عثرتما على لورا؟»

«لا. يكفي اننا تمكنا اليوم من القضاء على دينغو. لورا حتى الآن لم تشكل خطراً على القطيع. ولذا سننتظر ردة فعلها قبل القيام باي هجوم».

ولاحظ دارت انفعال كولبي وتأثرها.

«الحرارة ارتفعت كثيراً كولبي. سيعيدك ستيفن الى المنزل. اما نحن فسنذهب الى المزرعة. اشعر بحاجة قوية الى فنجان قهوة. ما رأيك مايك؟»

«سأحضر القهوة بنفسي».

والتفت الى كولبي.

«ما رأيك يا آنسة كيتغ بمشاركتنا».

احست كولبي ان مايك كان يراقبها طوال النهار بنظرات فيها معان اكثر من الاهتمام العابر بابنة عم الرئيس.

«لم اتلق منكم دعوة رسمية بهذا الشأن».

ضحك مايك عالياً والتفت الى دارت يطلب موافقته.

«حسناً يا كولبي تستطيعين مرافقتنا شرط ان تحضري انت بنفسك القهوة لنا».

«اوافق على شرط».

وشكرت كولبي مايك بابتسامة رقيقة. ونقل دارت بصره بينهما وهو يلوي فمه بسخرية. ابنة عمه الصغيرة تبدو اليوم برقة الزهور. كم هي جميلة ومشرقة! لن يكون مايك بشراً ان لم يلاحظ ذلك.

وقطب دارت حاجبيه وهم في طريق عودتهم الى المزرعة.

١٠ ـ العاصفة

قبل اسبوعين من حلول عيد رأس السنة، رافق دارت سوزان وبيللا الى بريسبان ليشرف على الترتيبات النهائية بشأن اقامة ودراسة سوزان. لم يتأخر بالوفاء بوعده، بل ناقش بعد ايام قليلة مستقبل شقيقته الشابة، وساعدها على الافصاح عن رغباتها وطموحها بانطلاق وصراحة. وعندما احست سوزان ان حلمها سيتحقق اخيراً، تغيرت تماماً وكأن عصا سحرية حولتها فجأة الى امرأة ناضجة. اختفى كل اثر لمزاجيتها القديمة وصارت اكثر اتزاناً ومرحا. اما بيللا فشعرت براحة عميقة. كانت السنة الفائتة من السنوات العصيبة في حياة ابنتها. حين يستقر دارت وولداها في حياتهم الخاصة المستقلة، ستقبل العرض الذي قدمه لها دارت، وهو كناية عن شقة فخمة في اي مدينة تختارها. اديلا بيد ربما. لها هناك الكثير من الاصدقاء، وخاصة صديقتها العزيزة ثيلما.

غادروا جميعاً المنزل من أوائل الاسبوع، ولن يعود دارت وبيللا قبل نهايته. ولذا استغلت كولبي المناسبة لتتمتع بحريتها قدر المستطاع. لم يحاول ستيفن او مايك الحد من تشردها الدائم في مختلف ارجاء المنطقة. فمحاولة ستيفن اليتيمة باءت بالفشل، وتجاهلتها كولبي تماماً. لا شعورياً او بوعي تام، لم تكن الشابة تعترف الا بسيد واحد. وبما انه لم يكن هناك في تلك اللحظة ليمارس نفوذه عليها، كانت تتصرف كما يحلو لها. لم يكن يتركها تغيب عن عينيه لحظة واحدة.

الأمسيات كانت تمر في جوّ شديد المرح. كان ستيفن ومايك يتسابقان لانتزاع الضحكات منها. السيدة ايفانز المشرفة على شؤون المنزل، وزوجها كانا ينامان في المنزل الكبير في غياب بيللا. وغالباً ما يتناولان العشاء مع المجموعة في جوّ بعيد عن الرسمية.

وفي اليوم الثالث زال السحر، وذلك فور توقف سيارة روشيل تينانت امام باب المنزل الكبير. كانت كولبي تستعد للخروج لنزهتها الصباحية على صهوة فرسها، ومعها بوكا المصمم على تنفيذ اوامر سيده بالسهر على الآنسة الشابة. وفور خروجها الى الشرفة رأت كولبي روشيل تترجل من سيارتها وهي في قمة انانتها وجاذبيتها. توجهت روشيل فوراً الى المنزل وتجاهلت تحية بوكا الصباحية، لتخاطب كولبي ببرود ولا مبالاة.

«هل أنت خارجة؟»

واحست كولبي بقلبها يغرق بين ضلوعها.

«لا. ليس الآن يا روشيل. تفضلي. سأقدم لك شراباً بارداً».

وصعدت روشيل الدرجات القليلة لتلحق بكولبي الى غرفة الجلوس.

«هل وصل دارت بخير الى المدينة؟»

«طبعاً. توجهوا الى هناك بالطائرة».

«أعرف. انا على علم بكل ما يجري في هذا المنزل».

لم تجبها كولبي بل توجهت فوراً الى الثلاجة لتخرج منها شراباً بارداً. وتناولت روشيل الكوب وهي تبتسم بسخرية. وراقبتها كولبي بصمت وهي تتساءل عن السبب وراء زيارة روشيل المفاجئة؟ هل جاءت يا ترى لتزعجها؟ ولم تطل روشيل المناورة، بل طرقت مباشرة الموضوع الذي اتت من اجله.

«يبدو ان هواء الصحراء يلائمك جداً. يا للأسف! كم شهر يا ترى تبقى لك هنا! شهران... ثلاثة؟»

«سأبلغ الواحدة والعشرين في الخامس من شهر آذار (مارس) اذا كان يهمك الامر

يا روشيل؟»

«كم استعجل مجيء هذا اليوم. دارت يشعر بمسؤولية كبيرة تجاهك. اعرف جيداً من أي نوع هو. انه يفعل الشيء ذاته لسوزان الشابة. لكن وضعها يختلف عن وضعك».

«في الحالتين الأمر لا يعنيك».

وبدأت كولبي تفقد هدوءها، وشحب لونها قليلاً. اما روشيل فحافظت على برودة اعصابها، وابتسامتها الساخرة. وضعت كوبها على الطاولة، واحتدّ صوتها بتهديد مبطن.

«طبعاً الامر يعنيني يا آنسة كولبي كينغ. لن يخيفني غضبك ولا يهمني ان رفعت صوتك بحدة. لا بد انه خطر لك اني ودارت على تفاهم تام.. تفاهم حدده وجودك المزعج في قيود عديدة. طبعاً لا نستطيع التخطيط لمستقبلنا وانت موجودة تحت هذا السقف. انا لن اطيق وجودك معنا مهما كانت الظروف. ولا يمكن ان تكوني ساذجة لدرجة تفكرين معهاعكس ذلك».

وحاولت كولبي السيطرة على غضبها قدر الامكان.

«أعتقد انك تبالغين يا روشيل. ربما كنت على تفاهم تام مع دارت، لكنه لا يحبك. انا أكيدة من ذلك».

وتألقت عينا روشيل بشرارة نارية زادت من شحوب وجهها.

«وكيف تعرفين ذلك ايتها المحتالة الصغيرة؟ في كل حال، سواء احبني دارت او لم يحبني، انا الشخص الملائم له! الملائم لدارت ولكنغارا! دارت يشبه والده تماماً. كنغارا بحاجة الى سيدة، ودارت يريد ابناً ووريثاً لكل املاكه. وانا استطيع الجمع بين الأمرين معاً... وببراعة».

«لا اعتقد انك تستطيعين ذلك بدون مساعدة».

قالتها كولبي بقسوة، لكن قلبها كان يعتصر ألماً. روشيل على حق! دارت من الرجال الذين يعتبرون ان انجاب طفل يكون وريثاً لكل ما عمل من أجله، هو افضل ما يتوجون به حياتهم. وروشيل، كما قالت هي نفسها، من

النوع الذي يتوقع المرء ان يتزوجه دارتلاند كينغ. رشيقة، جذابة، قوية، ربة بيت ممتازة، ومزارعة بارعة. وكان روشيل احست بما يدور في اعماق كولبي.

«أعتقد انني اصبت الهدف اخيراً. نحن نفهم بعضنا الآن».

وحاولت كولبي جاهدة السيطرة على رعشة يديها.

«انا لم افهم شيئاً بعد. فيما يختص بدارث اعرف اني استطيع البقاء هنا الى الابد. انه لا يقول مثل هذه الاشياء بخفة. لكني اعدك باني سأرحل من هنا فور تمكني من ذلك».

ورقصت عينا روشيل فرحة بالانتصار.

«أنا امرأة يا انسة كينغ... امرأة تعرف ماذا تريد، وكيف تحصل عليه. وانا أريد دارتلاند كينغ. الأمر بهذه البساطة. لن اقبل ببقائك هنا، ولا بمعاملتك السخيفة لدارث وكأنه بطل او مثال أعلى».

وتوقفت عيناها برهة على حمرة الخجل التي لونت وجه كولبي.

«نعم تنظرين اليه وكأنه شخص مقدس. هل تعتقدين بأننا لم نلاحظ ذلك؟ دارث أول من تنبه للأمر، ولا بد انه يشعر بالحرج من جراء ذلك. طبعا لم يقل لك ذلك. نحن النساء نتعامل فيما بيننا باسلوب آخر. نتصارح اكثر ولا نستعمل الاساليب الملتوية لنقول رأينا»

وصمتت قليلا لتراقب اثر كلماتها على وجه كولبي. ولا بد ان النتيجة اعجبتها لانها تابعت قائلة:

«من الافضل ان اعترف باني لا انوي الانتظار حتى شهر أذار (مارس) لتعلن خطوبتنا دارث وانا. حاولي اختراع حجة ما للابتعاد عن طريقنا. ما رأيك بامتهان التمريض؟ قد تصلحين لذلك! لا... ربما لن تصلحي لاي شيء. الى اللقاء! كوني عاقلة يا كولبي، وذلك لمصلحتنا معاً».

وخرجت روشيل مسرعة من غرفة الاستقبال، فاصطدمت ببوكا الذي كان يسترق السمع خلف الباب. كان من واجبه حماية الآنسة الصغيرة، ومراقبته لها في تلك اللحظة كانت تنفيذاً لاوامر سيده.

امسكت روشيل بكتفي بوكا وأخذت تهزه بعنف.

«كيف سمحت لنفسك بدخول المنزل. اغرب عن وجهي فوراً».

ومن وراء شتلات الورد، ظهر فجأة كولبار جو. نظرت اليه روشيل نظرة واحدة واسرعت باتجاه سيارتها. اغلقت الباب بحدة، وادارت محرك السيارة. اسرع الحيوان الغاضب يلحق بها، فقادت السيارة بسرعة خاطفة وصدمته. طارت كولبي الى مكان الحادث. لم يكن بوكا يستطيع الوقوف على قدميه. كان ينقل نظره بين صديقه الملقى ارضاً، وبين وجه روشيل المتشنج غضباً، وبين كولبي التي لم تكن تعرف كيف تتصرف. وفجأة فرّ هارباً وهو يصرخ عاليا على غرار السكان الاصليين في المآتم.

انزلت روشيل زجاج السيارة، لتلتفت آخر سمومها.

«اتمنى ان يكون هذا الحيوان اللعين قد لاقى حتفه. لن يجديك وضع اللوم عليّ. كان الامر مجرد حادث بسيط. حاولي ان تتذكري ذلك يا حضرة الآنسة الصغيرة. استعيني باحد العمال ليساعدك على التخلص من الجثة».

وانطلقت روشيل وهي تلعن عالياً الحيوان، وكولبي، وبوكا.

وعندما اصبحت كولبي بمفردها، مررت يدها بخوف على جسم الحيوان المسكين. كان ما يزال حياً. لا بد انه فقد الوعي لفترة بسيطة! ماذا تفعل الآن؟ ليس لديها اي خبرة في تقديم الاسعافات الأولية للحيوانات؟ وركضت فوراً الى الاسطبل لتبحث عن احد العمال. وبعد دقائق عادت برفقة اثنين منهما، لتجد كولبار جو واقفاً على قوائمه يهز رأسه باسى كبطل مهزوم.

«يا إلهي. شكراً لك.»

وتنفست كولبي الصعداء، قبل أن تلتفت الى العاملين لتشكرهما بابتسامة عريضة.

وبعد ساعات ثلاث كان جو قد استرد كامل عافيته، لكن بوكا ظل مختفيا، فلم يعرف ان صديقه العزيز ما زال حيا. وتوجهت كولبي الى الحظائر لتبحث عنه بعدما يئست من العثور عليه بمفردها. سألت عنه العمال كلهم، فكان

الجواب دائما بالنفي. لم يره احد منذ الصباح. اقترب منها مايك متسائلاً:

«ما بك كولبي؟ تبحثين عن بوكا؟ لا تقلقي، غالباً ما يختفي ساعات طويلة في احضان الطبيعة. سيعود قريباً».

«الأمر يختلف هذه المرة يا مايك. كولبار جو تعرض لحادث هذا الصباح، وبوكا يعتقد ان صديقه قضى حتفه».

نزع مايك قبعته عن رأسه، ليبعثر شعره بانامله.

«ردّدي ما قلته يا كولبي. لم افهم شيئا. انت تتكلمين بسرعة».

اخذت كولبي نفساً عميقاً قبل ان تردد ببطء:

«هذا الصباح مرت روشيل لزيارتي. لم تكن تريد شيئاً. قطعت كل هذه المسافة لتقول لي مرحبا».

لم تلاحظ كولبي النظرة المتفهمة التي مرت خاطفة في عيني مايك، فتابعت حديثها بحزن:

«ركض جو باتجاه السيارة فصدمته روشيل رغما عنها. هرب بوكا من مكان الحادث ولم اره بعد ذلك. اريد ان اخبره ان جو بخير».

«يا لك من انسانة حساسة يا كولبي! لا تقلقي. بوكا الصغير يستطيع الاعتناء بنفسه، وتضميد جراحه. سأخبر بن بالامر في اي حال».

«شكراً مايك. سامتطي سورشا واذهب الى التلال الرملية. انها مكان بوكا المفضل. لا اريده ان يبقى حزيناً طوال النهار من اجل لا شيء».

ابتسم لها مايك بحنان وهو ينظر عميقاً في عينيها.

«حسناً يا عزيزتي».

وانتبه فوراً الى ما قال، فاسرع يصلح خطأه:

«حسناً يا أنسة كينغ».

التفتت اليه كولبي باسمة.

«افضل العبارة الاولى يا مايك».

وانطلقت وهي تسمع ضحكاته ترن وراءها!

«اراك هذا المساء يا أنسة كولبي».

كان الحرّ شديداً في التلال الرملية، لكن نسبة الرطوبة المنخفضة جعلت الجو محمولاً. ترجلت كولبي عن فرسها. وربطتها الى شجرة قريبة لتبحث عن بوكا سيراً على الأقدام. وتنقلت من مغارة الى اخرى وهي تنادي عالياً باسمه. اشعة الشمس كانت تلذعها بقسوة. رفعت قبعتها عن رأسها لتمسح العرق الذي اغرق جبينها، وبلّل قميصها حتى التصق بجسمها. عليها ان تعود الى المنزل قريبا، الجو ينذر بعاصفة قوية. لكن كيف ترجع الآن! وبوكا! تستطيع ان تجد مخبأ في التلال، يقيها شر العاصفة والمطر. بدأت البحث عن بوكا ولن تتوقف الآن. هي مصرة على العثور عليه، وحدسها ينبئها انه ليس بعيداً. وعادت تصرخ اسمه عالياً. وتدريجيا لم تعد تسمع صوتها. الرياح اشتدت قوتها، والطيور اخذت تحلق بفوضى منذرة باقتراب العاصفة.

وفجأة انهمرت قطرات المطر بثقل لتتحول بسرعة الى شلال غزير وصل الارض بالسماء.

امتطت كولبي فرسها سورشا، وطارت بها صوب التلال بحثاً عن مغارة واسعة تأوي اليها. لم تكن تتوقع هذا التغير المفاجيء في الطقس. حتى الحرارة سقطت درجتها بسرعة غريبة، فاحست كولبي باوصالها ترتعش برداً. وعندما وصلت الشابة اخيراً الى هدفها كانت ثيابها المبللة تزيدها برداً ورعشة.

وترجلت كولبي عن فرسها في المغارة الكبيرة التي اختارتها. كانت سورشا رائعة فعلا. لم تتأثر بالعاصفة، بل ظلت على هدوئها وثباتها. اخرجت كولبي قطعة قماش جافة من خرج الفرس واخذت تمسح بها جسم سورشا المبلل. يا الهي كم تشعر بالبرد! عليها ان تشعل ناراً. لديها علبة ثقاب في حقيبتها، وعلى الارض هناك مجموعة جافة من الاعشاب اليابسة.

وانحنت كولبي لتشعل النار واسنانها تصطك برداً. واحست فجأة بظل اسود على باب المغارة حجب عنها ضوء النهار. لم تتحرك من مكانها. خفق قلبها بسرعة، وتجمع الخوف كله في عينيها ليحول لونهما الى الاخضر الداكن

وحملها دارت بين ذراعيه وكأنها دمية صغيرة.

«ألن استطيع ابداً ان اتركك وحدك؟ انظري الى نفسك. انت ترتعشين كطفلة لم تتجاوز بعد الثانية من العمر».

وشهقت كولبي وهي تكاد لا تصدق وجوده قربها.

«من اين اتيت يا دارت؟ لا اعرف كيف تفعل ذلك! كيف تمكنت من العثور عليّ؟»

«لن ادخل بالتفاصيل الآن. فلنقل انها حاستي السادسة».

وابتعد عنها بعدما تأكد من انها تستطيع الوقوف على قدميها. وكطفلة صغيرة تمتمت بضعف ورقة.

«الجو بارد جداً».

«طبعاً. كنت اعلم انني لن اجدك سالمة في المنزل لدى عودتي. كان عليك ان تخرجي وحدك في هذا الطقس العاصف».

ورمى لها دارت بكيس كبير من البلاستيك في داخله ملابس جافة.

«هيّا ابدلي ملابسك. انا لا ارغب في تمريض فتاة صغيرة مصابة بالبرد».

ونظرت كولبي حولها. اين ستغيّر ملابسها؟ ماذا تفعل؟ انها لا ترى زاوية واحدة تستطيع اللجوء اليها!

«هيّا يا كولبي . انزعي ملابسك والا ارغمتك على ذلك». قالها بقسوة، والتفت الى مدخل المغارة ليشغل نفسه بمراقبة العاصفة. وانصاعت كولبي لأوامره، فاستبدلت ثيابها المبللة بالفستان الجاف الذي اتاها به دارت. وعندما انتهت قالت بخجل:

«انتهيت من ارتداء ثيابي يا دارت».

التفت اليها متفحصاً. كم تبدو رقيقة وصغيرة في فستانها الابيض.

«تعالي الآن قرب النار».

ولبت كولبي فوراً. ما هو سرّ هذه السلطة التي يمارسها عليها والتي لا تستطيع التغلب عليها. انه دارت ابن عمها! لماذا لم تعد تستطيع اذاً ان تنظر

اليه كما كانت تفعل وهي طفلة. وشعرت فجأة بالخوف من هذا العالم المجهول الذي بدأت تكتشفه بدون ان تفهم اسراره.

«ما بك يا كولبي؟ خائفة من التعنيف؟»

«طبعاً لا. لكني لا افهم سرّ عصبيتك. يبدو اني ازعجك دائما. لم تكن هكذا... او بالاحرى...»

وتوقفت فجأة عن الكلام. كان دارت يحدق في المطر وكأنه لا يسمعها. وحاولت كولبي ان تقطع الصمت الثقيل الذي جثم فجأة على جو المغارة.

«كنت ابحث عن بوكا».

«أعرف. لكني لا اعرف لماذا لم يحاول احد ان يمنعك عن القيام بذلك. بوكا بامان. هو في منزله الآن، في احضان جدته. بينما انت تبحثين عنه في العاصفة. كان على مايك ان يأمرك بالعودة الى المنزل فور اكتشافه لنوايالك».

« مايك لا يعاملني كطفلة. انه يعرفني اكثر منك. انا امرأة. يبدو انك لم تلاحظ ذلك بعد. احب مايك لانه يشعرني باني امرأة».

اقترب منها دارت ووجهه الاسمر يختلج غضباً. وضع يديه على كتفيها بقوة حتى كادت تصرخ ألماً.

«يا لك من طفلة ساذجة. اي كان يستطيع ان يشعرك انك امرأة».

وارغمها على رفع رأسها باتجاهه. دار العالم بها ... استسلمت كولبي لعناقه وكأنها لا تريد التحرر منه ابداً.

وابعدها دارت عنه ليقول ساخراً:

«ما رأيك الآن؟ الا تعتقدين ان اياً كان يستطيع ان يشعرك انك امرأة؟»

ارتجف فمها استياء. وهبته قلبها فسخر منها. انه يعرف انها تحبه! لابد انه يعلم ذلك الآن. تجاوبها التام بين ذراعيه خير برهان على ذلك. تباً لك يا دارت، تباً لتسلطك وسيطرتك عليّ! انا لست افضل من اي سجين مقيد بالحديد.

عقد دارت حاجبيه وهو يراقب وجهها.

«هيّا يا كولبي. ضعي معطفي حول كتفيك. سنعود الى المنزل. اوقفت سيارتي

على بعد امتار قليلة».

احست كولبي برغبة قوية بالبكاء. كم تشعر بالتعب والضعف في هذه اللحظة.

«خذني الى المنزل يا دارت.ارجوك».

«جئت لهذا يا عزيزتي».

وفي دفء السيارة اراحت كولبي جسمها الصغير على المقعد الوثير. قربه منها يؤلمها لدرجة تشعر معها بأن الالم نفسي وجسدي معاً. على الأقل سترضي روشيل اخيراً. لا يمكن ان تتحمل ان تكون قريبة منه الى هذه الدرجة وتكون بعيدة عنه في الوقت ذاته.

وطوال الطريق الى المنزل اشاحت بوجهها عن دارت لتراقب الطبيعة التي تحب.

١١ ـ هدية تحت الشجرة

في عطلة الميلاد ورأس السنة الغربية، جاء ريال كينغ وزوجته بربارة لزيارة كنغارا. كان ريال صديقاً حميماً لـدارت، وابـن عم بعيداً له ولكولبي. أما زوجته بربارة، العروس التي اقترن بها منذ ستة أشهر فقط، فكانت قبل زواجها من اشهر سيدات المجتمع في استراليا. وكانت هي التي رغبت بزيارة كنغارا التي تعتبر من أغرب المواقع السياحية، بمنزلها التاريخي، واطارها المميز.

وكان اللقاء حاراً بين القريبين الصديقين. اما كولبي وبربارة فوقفتا تنظران الى بعضهما بشيء من الحذر حتى ابتسمت بربارة اخيراً فذاب الجليد. ابتسامتها الرائعة ذكرت كولبي بالصور المشرقة التي كانت تراها لها في صفحات الاخبار الاجتماعية. كم هي جميلة وانيقة ومترفة. تفهم الآن لماذا كانت بربارة تعتبر نجمة صالونات سيدني الفكرية والاجتماعية. وبالاضافة الى هذا كله كانت السيدة الشابة بارعة في فنون الفروسية والتزلج على الماء والجليد. ولاحظت كولبي ان ابتسامة بربارة تزداد اشراقاً كلما اقترب منها زوجها ريال. كان من الواضح انها تحبه جداً. عيناها فضحتا حبها، وكذلك نبرة صوتها التي تتدفق حناناً كلما تحدثت اليه. وريال بالطبع كان الزوج الذي تحلم به اية فتاة. طويل القامة، اسمر اللون، تنم تقاطيعه عن اصالة تميز جميع افراد عائلة كينغ. والى جانب هذا كله كان الوريث الوحيد لمزرعة كينكومبلا لم يكن غريباً اذن ان تختاره بربارة من بين كل الرجال الذين

تقدموا لخطبتها. واكدت السيدة كينغ اكثر من مرة انه لم يكن هناك حتى مجال واحد للتردد والاختيار بين ريال وبينهم. التقاها زوجها خلال احدى رحلات العمل التي يقوم بها الى سيدني. وفور وقوع نظره عليها قرر نهائياً انها ستكون زوجته، برغم ان بربارة كانت أخر من علم بهذا القرار.

وتوطدت اواصر الصداقة بين بربارة وكولبي، وصارتا تجوبان معاً المنطقة على ظهر الخيل وفي رفقة بوكا. وخلال احدى النزهات اخذت بربارة تتحدث بانفعال عن حبها لزوجها شعلة الغرام في عينيها جعلت كولبي تشعر برغبة في البكاء. فلاحظت السيدة الشابة تأثرها، فرفت عيناها عطفاً عليها.

«كولبي العزيزة. يبدو اني ضايقتك من حيث لا ادري».

ابتسمت كولبي بتعب وهي تحاول ان تضع في صوتها نبرة ساخرة.

«حدس المرأة يا بربارة لا يخيب».

«انه دارت طبعاً»

استطاعت بربارة بلحظة، وبقوة ملاحظتها، ان تدخل فوراً الى اعماق كولبي.

«لا بدّ انه دارت».

ولم تجب كولبي بل رفعت رأسها الى السماء. رددت بربارة ببساطة متناهية.

«طبعاً انه دارت. لا الومك. آل كينغ نوع خاص جداً من الرجال».

وظلّ تعليقها للحظات طويلة معلقاً في الهواء بانتظار ردّ الفعل عليه. فاجابت كولبي ببطء.

«أنا ابنة عم دارت الصغيرة يا بربارة. انت لم تلتق بروشيل تينانت بعد. انها من مزرعة تينانت. جارتنا على الحدود الشمالية الشرقية».

«وهل من المفروض ان يعني ذلك شيئاً خاصاً؟»

«نعم. بيللا ترتب حفلة عشاء لمساء غد. ستلتقين بها في الحفل. انها الفتاة المناسبة لدارت. هي بنفسها قالت لي هذا. انها شابة سمراء، رشيقة، وجذابة».

كان هناك اثر من الاسف والحزن في صوت كولبي.

ضحكت بربارة عالياً وضجت عيناها مرحاً.

«فور عودتنا الى المنزل انظري الى نفسك جيداً في المرآة يا كولبي. انت فتاة جميلة جداً. لك شخصية مميزة، ورقة طفولية. هذه معادلة كفيلة بهزم اقوى الرجال».

وتألقت كولبي فرحاً وهي تستقرّ بعينيها الخضراوين على صديقتها الجديدة.

«وانت دعم رائع لمعنوياتي يا سيدة كينغ. لكنك متفائلة جداً للاسف. دارت لن ينظر الىّ الاّ كفتاة صغيرة متموجة الخصلات، تلاحقه اينما ذهب. انا لست بامرأة غامضة وساحرة».

«هذا ما تعتقدينه. عليّ ان اقنك بعض اسرار الاستراتجية التي استخدمتها مع زوجي، واثبتت نجاحها كما ترين».

ورفعت بحركة عفوية خصلات شعرها الاشقر الذي تهدل على جبينها، وتلاعب بريق شقاوة في عينيها. وراحت تؤكد بخبرة المرأة الناضجة:

«كلما افكر بالامر كلما اصبح اكثر ثقة بانك المرأة المثالية لدارت. انا معجبة به جداً. انه من ذاك النوع من الرجال الذين يحتاجون الى زوجة فائقة الأنوثة».

وهمست بصوت متخفض وكأنها تخطط لمؤامرة.

«أنا اذري منك بهذه الامور. دارت لا يختلف كثيراً عن ريال. ويبدو اني وايّاك نتفق كثيراً».

وتبادلنا ابتسامة سريعة. وللحظة عرفت كولبي معنى الامل، وتجرأت على الحلم. وتابعتا نزهتهما بين احضان الطبيعة فارتعشت الازهار البرية لدى مرورهما، وعادت لتغفو بهدوء على كتف المساحات الواسعة من العشب الاخضر.

كان المنزل يشع بالاضواء والازهار. نزلت بيللا الى غرفة الاستقبال لتشرف على الترتيبات النهائية قبل وصول الضيوف. بعد قليل ستصل روشيل برفقة والدها جوستان تينانت. والقت بيللا نظرة رضى على غرفتي الجلوس والطعام،

وقررت انهما لا يمكن ان تبديا افضل من ذلك. كولبي ماهرة حقاً في وضع اللمسات النهائية. يكفي ان تقوم ببعض التغييرات هنا وهناك لتتألق الزهور في اروع حلة. وتوقفت نظرات بيللا على مائدة الطعام. ثلاث قطع من الكريستال الشفاف غرقت تحت مهرجان من البنفسج توزعت بينها شموع بيضاء صغيرة كحبات الندى. عليها ان تتذكر اضاءتها مباشرة قبل العشاء. انه الجو الامثل لاثارة الشهية والأحاديث.

في زاوية غرفة الجلوس تألقت شجرة الميلاد بكل اضوائها لترحّب بالضيوف. لابد ان دارت انفق ثروة كبيرة في بريسبان كما تلاحظ من خلال كثرة الهدايا تحت الشجرة. ما اجمله من وقت. واحست بيللا كأنها عادت طفلة صغيرة تتحرق شوقا للعيد.

وبعد نصف ساعة كان البيت يضجّ بالموسيقى والضحكات. سوزان برغم اشراقها المميز كانت تتصرف بنضج ورزانة لم تتوقعهما بيللا من ابنتها. للمرة الاولى تراها ترتدي فستاناً انيقاً زادها جمالاً. لونه الازرق الداكن المحلى بتطاريز رقيقة، ابرز لون عينيها الزرقاوين. امضت الام وابنتها معظم ساعات النهار في البحث عن هذا الفستان.

كولبي كانت رائعة في فستانها الاسود البسيط. كانت تجمع بين الانوثة والطفولة. رقيقة كوردة برية. اللون الاسود يليق بها فعلاً. فشعرها الناري اشتعل اكثر فوق الثوب الداكن. اما عيناها فبدتا اكثر اتساعاً واخضراراً، وزادهما عمقاً واقتراباً من الطبيعة الكحل الداكن الذي استعملته حولها. وعرفت بيللا ان برباره هي المسؤولة عن هذا الاغراء الجديد في عيني كولبي اللتين لم تعرفا الكحل من قبل.

وكانت برباره غافلة عما يدور في ذهن بيللا. فهي مستغرقة في الحديث مع دارت مما اثار غيرة روشيل التي لم ترفع عينيها عنها لحظة واحدة، برغم انها هي أيضاً كانت تبدو في قمة اناقتها وجاذبيتها في ثوبها الحريري الأحمر.

وتشعب الحديث ليتناول مواضيع مختلفة. واظهر جوستان تينانت اطلاعاً واسعاً ينمّ عن ثقافة عالية. اعجبت به كولبي كثيراً. انه رجل طيب وودود، يفرض احترامه على الجميع.

راقبها جوستان باهتمام وهما يتحدثان عن اشياء مختلفة. ومرت على شفتيه ابتسامة عابرة.

«أتعرفين يا آنسة كينغ انك لست كما توقعت!»

«وماذا توقعت يا سيّد تينانت؟»

«لم اتوقع ان التقي بفتاة طيبة ومرحة ودافئة لا تعرف معنى المكائد والدسائس».

تكلّم بدون تفكير، وبدون ان يتوقف لحظة واحدة ليراقب اثر كلماته على وجه الشابة الجميلة. كم هي رقيقة وبريئة! ليست ابداً كما وصفتها له ابنته روشيل. بصراحة كانت العكس تماماً عما اوحت به اليه. مسكينة روشيل! تفقد صوابها عندما يتعلق الأمر بدارتلاند كينغ.

وانصرف اهتمام كولبي الى ريال الذي كان يشكو عالياً من انه مهمل في هذه الامسية. واغرقها قريبها بالاسئلة والتعليقات وما هي الا دقائق معدودة حتى كانت تضحك عالياً تجاوباً مع سحر ابن عمها البعيد.

دارت كان يترأس الطاولة. سمع ضحكاتها فابتسم لها ساخراً. وردت عليه بنظرة متحدية. نقل ريال بصره بينهما باهتمام واضح. ثم حوّل نظره الى روشيل ليستقر اخيراً على كولبي التي لاحظت تساؤله الصامت فاجابت بعفوية:

«لا تقل شيئاً».

نظر اليها ريال مطولا واستراحت قسمات وجهه.

«حسناً. لكني سأثير القضية تدريجياً».

الحنان في عينيه جعل كولبي تشعر ان لها حليف قوي في العائلة.

بعد العشاء سيقيم السكان الأصليون حفلة راقصة ترحيباً بالسيد دارت وضيوفه. كانت الليلة رائعة. السماء المخملية اخذت تغمر الكون بعيونها الصغيرة

البراقة، التي تناثرت اضواء فرحة في عتمة الليل.

أخذت كولبي نفساً عميقاً وهي تشعر بالحزن والسعادة في وقت واحد. الهواء يتلاعب دافئاً على وجنتيها مشبعاً بعطر الازهار الليلية. اضواء البيت انسكبت شلالات من الفضة على حديد الشرفة، وتدحرج بعضها كلآلىء صغيرة على عشب الحديقة. ومن الداخل كانت تصلها اصوات الاحاديث والضحكات. ليلة رائعة فعلاً يمتزج فيها الفرح بالسكون والسلام.

قرب الينبوع اشتعلت السماء بوهج النيران التي اشعلها السكان الأصليون احتفالاً بعيد الرجل الأبيض. اليوم عيد، وسوف يلتفون بعد قليل حول مائدة كبيرة مزينة بالزهور وبجميع انواع الفاكهة. ومن سلال القش البدائية تصاعدت رائحة لحم العجل المشوي.

رفعت كولبي وجهها الى القمر الذي كان يتأرجح سعيداً بين الاغصان، واغمضت عينيها لتستبقي فيهما الحلم لاطول فترة ممكنة. هذه هي كنغارا حلم طفولتها، ومنبع جذورها. فكيف يمكن ان تبتعد عنها؟

وسمعت كولبي وراءها وقع اقدام فانقطع السحر. انها روشيل.

«كيف حالك يا طفلتي الصغيرة؟ لا تظني اني لم الاحظ محاولاتك للفت نظر دارت. فستانك الاسود، والكحل في عينيك... أتعتقدين اني غافلة عن كل هذا».

ورفعت روشيل يدها لتصلح بعض ما تناثر من شعرها، ثم نظرت الى كولبي بكثير من السخرية والتعالي.

«وتذكري ايضاً ان اقامتك هنا مؤقتة. لا تحاولي التقرب من كل افراد العائلة لتحقيق اهدافك الخاصة».

واتسعت عينا كولبي الماً واستياءً.

«يا إلهي روشيل! انت انسانة غريبة فعلاً. اذا كنت تحاولين اخافتي فلن تنجحي في ذلك. ليس هذا الوقت او المكان المناسب».

شحب لون روشيل وبدا كأنها تريد ان تلجأ الى العنف لكنها تمالكت

اعصابها في اللحظة الأخيرة.

«انذرك مرة أخيرة يا كولبي. لا تحاولي التحايل عليّ. لو فعلت ذلك ستندمين. انا اعرف ماذا تريدين. ودارت يدرك تماماً الطريقة التي يعمل بها عقلك... الفستان الأسود وغيره!»

تسمّرت كولبي في مكانها. وجهها كان يعبّر عن الحزن والقرف معاً. ستكتفي بالصمت. كرامتها لا تسمح لها بالرد على مثل هذه الاتهامات. يا لها من امرأة قاسية! لا يهمها الأساليب التي تستعملها لازالة المنافسة.

«سأقول لك شيئاً واحداً يا روشيل، وهو انك ضيفة مزعجة».

رنت ضحكة روشيل قصيرة قاسية.

«لامن حسن الحظ ان هذا رأيك وحدك. ورأيك لا يهمني».

وقطع عليهما الحديث اقتراب مايك منهما.

«آسف. هل قطعت حواركما؟»

وحاولت روشيل ان تضمن اجابتها مزيداً من التجريح بمنافستها.

«لا. الحديث لم يكن ممتعاً في أي حال. ما زالت كولبي طفلة صغيرة. سأترككما معاً لأخلي لكما الجو».

وابتعدت قبل ان يعلّق احد منهما على كلماتها المبطنة...

«يا لها من امرأة شريرة. لا تهتمي بها يا كولبي. من الواضح انها تغار منك».

«ولماذا تغار مني يا مايك؟»

وضع مايك ذراعه حول كتفيها وسارا معاً الى الحديقة.

«طبعاً تغار. أنا مثلاً لم استطع ان ارفع بصري عنك طوال السهرة».

وبعد فترة كان الجميع يجلسون في الشرفة لمشاهدة الاحتفال الذي اقامه السكان الاصليون لهم. استرخت بيللا في مقعد وثير قرب سوزان وستيفن، والى يمينها جوستان تينانت. بربارة وريال استقرا في زاوية الشرفة قرب دارت وروشيل. اما مايك فظل الى جانب كولبي لا يفارقها.

وبدأ الحفل بمجموعة من الرقصات الوطنية قام بها الراقصون بخفة وبراعة.

وعلى رؤوسهم اشكال غريبة صنعوها من ريش الببغاوات الملون. اما صدورهم البرونزية فكانت مزينة برسوم يمثل كل واحد منها اسطورة وطنية عبّر عنها اصحابها بالأحمر والأصفر والأبيض.

وتصاعد الايقاع في الهواء صاخباً، ورقيقاً احياناً اخرى. وامتزجت الاجسام مع النغم، حتى شكلت وحدة متكاملة يصعب الفصل بينها. صارت الرقصة اغنية والاغنية رقصة. وحبس المشاهدون انفاسهم امام هذا الاستعراض البدائي الراقص الذي يتفاعل معه المرء بكل عواطفه، والذي يفجّر في الاعماق أحاسيس غريبة تعيد الانسان الى فطرته بعيداً عن القيود الزائفة. شعور لا يستطيع ان يختبره إلاّ من عاش قريباً من الأرض. تمكن الراقصون بساعات قليلة من نقل كل اختلاجات الطبيعة الانسانية من خوف وحلم وامل وعنف.

وعندما خفتت الموسيقى، وهدأت الاجسام ارتفع التصفيق يعبر عن الانفعالات المشتركة التي جمعت بين الاصليين والبيض بدون تمييز.

ومرّت بقية السهرة وكولبي تشعر انها خارج الزمان والمكان. دارت يتجاهلها تماماً كأنها غير موجودة. اهتمامه المبالغ بروشيل كان وحده كفيلاً بتمزيقها. ومنافستها تتصرف كأنها سيدة كنغارا. وحاولت كولبي ان تتمالك أعصابها قدر المستطاع. لا تريد ان تلاحظ روشيل ضعفها. ستسخر منها. يكفيها ما حصل حتى الآن.

وحاول مايك وستيفن التخفيف عنها قدر المستطاع. لكنها لم تستطع ان تبعد عينيها عن رأسي دارت وروشيل المتقاربين. كم تتألم في هذه اللحظة! كانت روشيل تتكلم بحماس وثقة المرأة الناضجة التي تعرف جيداً انها استطاعت الفوز بالرجل الذي تحب. ابنة عم دارت الصغيرة لم تعد تشكل خطراً عليها. دارتلاند كينغ اصبح ملك يديها وكذلك كلّ املاكه. ووضعت روشيل يدها على عنق دارت، فعرفت كولبي معنى الغيرة التي تجعل القلب ينزف دماً. ضحكت بصوت مرتفع لتخفي اضطرابها. لن تسمح لاحد بان يكتشف شعورها الحقيقي. ولم تعد كولبي تطيق النظر اليهما أكثر من ذلك،

فحوّلت اهتمامها الى ريال وبرباره. كانا يرقصان على انغام موسيقى ناعمة، كعاشقين لا يريان في الدنيا إلاّ حبهما. ما اسعدهما من زوجين!

وانفض الحفل، فلجأت كولبي الى غرفتها. اخذت تسير ذهاباً واياباً بين الجدران الاربعة، عاجزة عن الاستقرار في مكان واحد. حتى الدموع استعصت عليها. آه لو كانت اكثر نضجاً وخبرة، لعرفت عندها كيف تتعامل مع هذه الازمة العاطفية التي تهزّ كيانها. دارت كان في كل شيء حولها، في الهواء الذي تتنفس... لا تستطيع مقاومة حبه المغروس عميقاً في كل وجودها. نظرة واحدة الى وجهه الاسمر كانت كفيلة بهزها عنيفاً. لم تشعر في حياتها بكل هذا الضعف والاذلال.

ونظرت الى صورتها المنعكسة في المرآة.

«آه لو كنت اكثر نضجاً».

وبحركة طفولية مدت لسانها هازئة، تسخر من صورتها. عليها ان تأوي الى فراشها الآن. هي متعبة وتريد ان تنام. وفجأة تذكرت هدية دارت. كانت تنوي ان تعطيه اياها على انفراد. لكنها غيّرت رأيها الآن. ستضعها تحت الشجرة مع بقية الهدايا. اختارت له هدية تعني لها الكثير. ستقدم له ازرار اكمام من الذهب الخالص والاوبال كانت تخص والدها. كم تتمنى لو تستطيع البكاء. لا لن تبكي. لم تعد طفلة. ستنزل الآن. بهدوء لتضع الهدية تحت الشجرة.

ولم تكد كولبي تدخل غرفة الاستقبال حتى استوقفها دارت.

«ماذا تفعلين هنا يا عصفورة الجنة؟ انت ترتعشين».

لم تجبه بل تابعت سيرها الى الشجرة. فارغمها على التوقف.

«وماذا تخبئين في يدك يا ساحرتي الصغيرة؟ لا تقولي انك تحملين قلبك على يدك لتقدميه لي هدية!»

ثارت كولبي لكرامتها امام هذه السخرية الواضحة بها. فاجابت بعنف:

«لا. قلبي ليس لك يا دارتلاند كينغ».

«هل هذا قرارك النهائي؟»

«نعم. كم أكرهك يا دارت».

قالتها بقوة وهي تتمنى لو كانت صادقة فعلاً في قولها.

وكانت ردة فعله فورية. احتضنها بقسوة وهو يردد بعنف.

«لن تتوقفي عن حبي وانت حية يا كولبي».

وحاولت ان تتخلص من قبضته بدون جدوى. كان اقوى منها.

«كنت شديدة الأغراء هذا المساء، يا صغيرتي بفستانك الاسود. لا بد وان مايك اخبرك بذلك. الرجال كلهم وقعوا تحت سحرك، وانا واحد منهم».

وصفعته كولبي بقوة. وللحظات حل صمت ثقيل بينهما. لم يتحركا من مكانهما. واحست كولبي بالخوف وهي ترى دارت يحاول جاهداً السيطرة على غضبه.

«اذهبي الى فراشك يا كولبي قبل ان أفقد أعصابي».

وركضت كولبي الى غرفتها والدموع تنهمر من عينيها... دموعها سترافقها في الليالي المقبلة كلما تذكرت هذه اللحظة الاليمة. طعنها دارت في الصميم وجرحها لن يضمده الزمن. لن تعرف السلام بعد الآن. ستجد طريقة تفر بها من الحصار الذي فرضه عليها دارت، وستغادر هذا السجن الاجباري بدون رجعة. ستتحرر من قبضته اخيراً.

١٢ ـ سيدة كنغارا

كانت بحيرة كينكومبلا مكاناً رائع الجمال، يحيط بها سور كثيف من النباتات الخضراء، تطرزه الزهور كلوحة برية تحبيها العصافير والفراشات، وتضيئها اشعة الشمس المتلألئة على المياه الفضية.

جلست كولبي ساهمة على صخرة قرب الشاطئ، تلقي الحصى في المياه وتراقب الدوائر الكبيرة اللاهثة على سطح البحيرة حتى تعبت واختفت. كان الفقر شديداً في الطرقات، اما هنا فالنسمات المنعشة تتلاعب بين الأغصان هرباً من اشعة الشمس.

اسندت كولبي ظهرها الى جذع شجرة قديمة، غير مبالية بوخز الاغصان اليابسة التي اخترقت قميصها الرقيق. مضى على وجودها في كينكومبلا اسابيع ثلاثة عاشتها في حال من الخمول النفسي وكأنها معلقة خارج المكان والزمان. فقط صورة دارت كانت تعيدها الى الحياة بين حين وآخر، وتخرجها من جمودها. كيف تستطيع ان تنسى الوجه الأسمر الحبيب، وتفاطيعه مغروزة عميقاً في كيانها.

واتجهت افكار كولبي الى بربارة بعرفان ومحبة. انها صديقة رائعة فهناك رابط قوي جمع بينهما بسرعة. وما من مرة طوال الأيام الفائتة حاولت بربارة لفظ الاسم المحرم، برغم انها غالباً ما كانت ترغب في التطرق الى موضوع دارت.

بربارة هي التي اقترحت، بل اصرّت على اصطحاب كولبي معها الى

كينكومبلا. لا يستطيع احد ان يفلت من قوة ملاحظتها. نظرة واحدة الى وجه كولبي، صباح اليوم الذي اعقب الحفلة، جعلتها تتخذ القرار بابعاد كولبي عن كنغارا. وعندما تتخذ برباره قراراً كان من عادتها العمل بسرعة على تنفيذه.

رأت كولبي هذا التدخل وكأنه اشارة من السماء. برباره قادت اولى خطواتها على طريق الخلاص. انها المخرج الوحيد لفك الحصار الذي فرضه عليها دارت. افراد العائلة جميعهم لاحظوا التوتر السائد بينها وبين ابن عمها، فللمرة الاولى تتجنب رفقته ويتجاهل هو وجودها.

لم يعارض دارت قيام كولبي بهذه الرحلة القصيرة، واعتبرها اجازة مؤقتة تعود بعدها ابنة عمه الى المنزل. اما بيللا فرحبت بالفكرة لأنها احست بغريزتها الانثوية حاجة كولبي الابتعاد عن اجواء كنغارا.

ورحلت كولبي عن منزل طفولتها. وبرغم المها لهذه الغربة القسرية، احست بالراحة لوجودها مع ريال وبرباره التي لم تكن تخفي تعلقها الشديد بصديقتها الشابة.

وكانت برباره تحب الاستغراق في قيلولة قصيرة بعد الظهر، عكس كولبي التي اخذت تنتهز هذا الوقت لتنفرد بالمها قرب البحيرة.

استلقت كولبي على الاعشاب، وارخت رأسها على يديها تحدق بزرقة السماء التي تناثرت قطعاً صغيرة بين اوراق الشجر.

وأغلقت الشابة العاشقة عينيها، وشرد ذهنها مجدداً وراء الحلم الوحيد الذي يشغل بالها. وسقط شعاع شمس على وجهها، ففتحت ذراعيها تستقبله كطفلة سعيدة بالدفء والجمال المحيط بها. وفي مكان ما في داخلها أحست كولبي بشيء من السلام.

عليها ان تتوصل سريعاً الى حل يريحها من الصراع الذي يمزقها. لكن كيف؟ لا تستطيع البقاء في كينكومبلا برغم معاملة ريال وبرباره الطيبة. وعادت تتعثر على الطريق الوعرة ذاته.. الطريق التي تقودها الى دارت. ترى ماذا يفعل

الآن؟ ربما تمكن في غيابها من حلّ المشاكل التي كانت تقيد علاقته بروشيل.

واسترجعت في ذهنها صورة الوجه الاسمر الوسيم الذي تضيئه عينان رماديتان واسعتان. تأوهت عالياً وهي تحاول ان تدفن المها عميقاً في داخلها، اينما كانت، صورة دارت لا تفارقها. وحدقت بسرب من الطيور حلّق فوقها فاتحاً اجنحته للفضاء الرحب. آه لو تستطيع ان تصبح حرّة هي ايضاً!

هل هكذا يشعر كل الناس عندما يحبون؟ وهل يفقد المرء هويته ليذوب في شخصية الحبيب؟ كانت تعتقد ان شيئاً لا يمكن ان يفرق بينها وبين دارت. هل يمكن ان يفترقا؟ لا . من المستحيل حدوث ذلك! واحست اخيراً بالتعب يشلّ اعضاءها وذهنها. فغرقت في نوم عميق لم تنم مثله عدة ليالٍ.

وامتدت الظلال على جسمها الساكن، وسقطت بضع ورقات يابسة تداعب شعرها الناري بحنان. وافاقت من سباتها على زقزقة العصافير التي اخافها وجود شخص ما. وفجأة انهالت عليها الحصى من شجرة قريبة، فرفعت رأسها لترى من يداعبها بهذه الطريقة.

وخفق قلبها بشدة. دارت! كم تحبه تريده لكن كيف تستطيع الهروب منه وهو مصمم على ملاحقتها لسبب لا تفهمه! رفعت رأسها باعتداد، واستقامت في جلستها وهي تراه يقترب منها صارخاً:

«مفاجأة! مفاجأة!»

لم تجب ولم تتحرك من مكانها فسألها باهتمام:

«ألا تنوين العودة الى المنزل يا كولبي؟»

وسقطت خصلة شعر فوضوية على جبينها فرفعتها بعصبية. وحاولت كولبي السيطرة على رعشة يديها وهي تجيبه ساخرة:

«لم أكن أعلم انك حدّدت فترة اجازتي بوقت معين يا دارت».

ضاقت عيناه، وتقلّصت عضلات وجهه دلالة على التوتر المتفاعل في داخله.

«لا تتحديني يا صغيرتي. قد أغضب. وانت تعرفين جيداً معنى غضبي».

ووضع يده على كتفها في لمسة تعرفها جيداً.

«ألم تشعري طوال هذه المدة بشوق لرؤيتي؟»

وجالت عيناه على وجهها تتفقدانه باهتمام دافئ.

«أرى انك خسرت شيئاً من وزنك يا عزيزتي. الم يكن ريال يطعمك جيداً.

اشاحت كولبي بوجهها وهي تؤكد:

«اقامتي هنا كانت ممتعة جداً يا دارت. عاملني ريال وبرباره بمودة فائقة، واستقبلاني بصورة رائعة. شعرت اني واحدة من العائلة، واني أعيش فعلاً في منزلي».

وارتدى دارت قناعه الساخر مرة اخرى.

«وهل تحمل كلماتك هذه اتهاماً مبطناً؟»

«لا . ما لم تكن انت ترى فيها ذلك!»

وانحنت لتلتقط كتابها الذي سقط ارضاً.

«لا تتحديني يا كولبي. لم اعد احتمل المزيد».

وفجأة اختفى كل اثر للسخرية عن وجهه، وحلّ مكانها تعبير تراه كولبي للمرة الأولى.

«ماذا تريد مني يا دارت؟ ان اعود الى المنزل كطفلة مطيعة؟ لا استطيع...»

وارتجف صوتها، فعرفت فوراً انها ضعفت مرة اخرى ، سيكون الامر هكذا دائما مع دارت!

وانطلقت تركض هاربة منه، كحيوان بري خائف من الوقوع في قبضة الصياد. وتمكن دارت من الامساك بها في سهولة. احاطها بذراعيه، فاقلتت منه وعادت تجري. لم تستطع ان تبتعد كثيراً تعثرت بجذع شجرة يابسة ووقعت باكية في العشب.

انحنى عليها ورفعها بين ذراعيه، فخبأت رأسها بين يديها كطفلة صغيرة لا تعرف كيف تدافع عن نفسها.

«لا . لا يا دارت.»

وكان جوابه الوحيد على دفعها المستميت، قبلة طبعها بحنان على جبينها المبلل

بالعرق. لم تتمرد بل استكانت بين ذراعيه وهي تشعر بارهاق شديد. ابقاها دارت قريبة من قلبه.

«ستعودين معي يا كولبي...احبك ولن ادعك تهربين مني. أسف اذا كانت مشاريعك لا تتوافق مع رغبتي، لكني لن ادعك تبقين بعيدة عني بعد الآن. سأعود بك الى كنغارا حيث تنتمين».

اتسعت عيناها للمفاجأة. يحبها! تكاد لا تصدق ما تسمع.

«تحبني...؟»

تمتمت الكلمة وكأنها تحلم. الدهشة الطفولية في صوتها جعلت دارت يبتسم بحنان برغم التوتر الذي ما زال يشعر به يهز كل كيانه.

«نعم يا حبيبتي...نعم احبك!»

واحسّت كولبي بدفء انفاسه. وعندما التقت نظراتهما اخيراً رأت كولبي في عينيه كل الحب الذي كانت تتمنى. احاطت عنقه بذراعيها، والقت رأسها على كتفه بشوق. وللمرّة الاولى منذ اسابيع طويلة راحت تتنفس بعمق. وبعد لحظات تمكنت اخيراً من القول:

«وعندما افكر اني كنت اغار من روشيل.»

ونظرت اليه عاتبة، فرأت وجهه يشرق فرحا...دارت كما عرفته دائماً...فارس احلامها.

«وما العيب في قليل من الغيرة يا كولبي. اعترف اني ربما أكون قد بالغت قليلاً في اظهار اهتمامي بها. لكنها الآن في طريقها الى الولايات المتحدة. هكذا اخبرتني سوزان. كنت أعلم ان قلبي لا يمكن ان يكون إلاّ لامرأة واحدة، نارية الخصلات وحادة الطباع. احببتك يا كولبي منذ الليلة الأولى التي عدت فيها الى كنغارا.

وأنزل يدها التي كانت تداعب شعره ليعانقها بحنان.

«تباً لك يا دارت. لماذا رضيت لي بكل هذا العذاب؟ آه لو تعرف كم عانيت في الأسابيع الماضية.»

وضمّها الى صدره بقوة، يريد ان يحمي حبه الصغير من أي ألم.

«كان علي ان امنحك بعض الوقت لتمتحني صدق عواطفك تجاهي. لكني لم استطع الصبر اكثر من ذلك. انا لم اكن ابداً بارعاً في الانتظار. نحن لبعضنا منذ ولادتنا. الطبيعة كلها كانت تنتظر هذه اللحظة. انت جزء مني يا كولبي. جزء من قلبي ومن عقلي».

وغرّدت السعادة في عينيها الخضراوين. كم تحبه. دارت...رجلها.

«وأنت ايضاً جزء مني يا حبي الوحيد. ها انا اعترف لك بشعوري فلا تستغل الفرصة لتمارس سيطرتك عليّ».

وعادت تغرق وجهها في كتفه. ولم يتحركا من مكانهما لحظات طويلة. استغرق دارت في تأمل جمالها. لكنه أفاق اخيراً من نشوته.

«فلنعد الآن الى ريال وبرباره. سنخبرهما ما يتوقعان سماعه».

فأجابته بمرح.

«بأني سأعود الى المنزل اخيراً».

ابتسم لها بحنان...وقبلك.

«لا يا حبيبتي. سنخبرهما انه سيكون لكنغارا سيدة جديدة، وان مقاطعة كينغ تنتظر عروسي الجميلة».